المؤسسة الوطنية للدراسات والبحوث
National Association for Studies and Research

بسم الله الرحمن الرحيم

ORDAF
ORTADOĞU VE AFRİKA ARAŞTIRMACILARI DERNEĞİ
ASSOCIATION OF RESEARCHERS ON THE MIDDLE EAST AND AFRICA

ISAV
İSLÂMÎ İLİMLER ARAŞTIRMA VAKFI
THE FOUNDATION FOR RESEARCH IN ISLAMIC SCIENCES
وقف دراسات العلوم الاسلامية

المؤسسة الوطنية للدراسات والبحوث
National Association for Studies and Research

ملتقى الهوية الخامس. **اوسكدار ـ اسطنبول شباط ١٧. ٢٠١٣**

مستقبل السنة في الشرق الاسلامي.

الرعاية:
ISAV وقف دراسات العلوم الإسلامية
ORDAF جمعية باحثي الشرق الاوسط وافريقيا
NASR المؤسسة الوطنية للدراسات والبحوث

المحاور:

المحور الاول: مدارس اهل السنة وتأثيرها على تأسيس الهوية السنية.
المحور الثاني: التحديات التي تواجه الهوية السنية وتحديات التمثيل السياسي والاحزاب.
المحور الثالث: تجارب البلدان الاسلامية المعاصرة في تعامل الاسلاميين مع الاخرين.
المحور الرابع: هل يمكن لمبادئ اهل السنة من تأسيس مجتمع ودولة قائمة على المبادئ الاسلامية والانسانية.

المشاركون:

البروفسور د. علي اوزاك.

البرفسور د. رحمي يارن.

البرفسور د. زكريا كورشون.

البرفسور د. احمد اغرقجا.

البرفسور د. ادم اباك.

البرفسور د. ليث القيسي.

د. محمد عياش الكبيسي

د. محمود ابو الهدى الحسيني.

د. عبدالناصر المهداوي

د. محمود المصري

د. عثمان سعيد العاني.

د. مصطفى اوزجان

د. ميسر المكي

د. عمر عبدالستار

د. مهند يوسف العلام

الاستاذ عدي نعمان درويش

المؤسسة الوطنية للدراسات والبحوث
National Association for Studies and Research

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وبعد

تاسيس الهوية السنية ينحصر بين التاصيل الشرعي لها والتاسيس الحضاري التي يتم بموجبه معرفة وبناء الشخصية السنية بكافة جوانبها. والبحث عن هذا التاسيس يستوجب طرح اسئلة قبل البحث عن اجابات جاهزة وذات قوالب يمكن تركيبها واسقاطها على الوضع الراهن.

واول تلك الاسئلة الواضحة هل يمكن لمبادئ اهل السنة في الشرق الاسلامي من تاسيس مجتمع ودولة قائمة على المبادئ الاسلامية والانسانية العامة. وان التجارب بين الامم الاسلامية المعاصرة في تعامل الدين مع الاخرين ممن يتخذون من المناهج المدنية تحتاج الى اعادة النظر ام انها اتخذت ابعادها كافة لتكون بهذه الصورة. فتحول الفكرة الى مشروع يستوجب العودة الى التاريخ وقبلها الى البحث عن محور الغيب في الهوية والعلاقة بين الاسلام والهوية والابعاد كافة من القومية والفكرية والثقافية والاجتماعية وحتى الاقتصادية .

فالمعالجات كون الاسلام دين الرحمة ويرنو الى الوحدة بين الامم وهو دين الرحمة بلا جدل ورغم وضوح النص الديني في هذا المجال نرى ان الناس قد تفرقوا وهو ما يقابله ان الاختلاف رحمة وجاء لتسهيل الحياة اليومية. وقد لعب تطور المفاهيم الدينية ليخلق نوع من التوازن والسلم الاجتماعي. واصبحت المدرسة السنية مصدرا للتعايش السلمي بغض النظر عن نظرة السلفيين لباقي اهل السنة.

ازمة السلم بين الشيعة واهل السنة والتعصب الديني ورفض الاخر واتهام كلا الطرفين بعضهم للبعض الاخر تجعل اهل السنة يتسائلون اين الخطا الذي وقع فيه اهل السنة بهذا الامر وماهو الهدف من التامر على اهل السنة وهل سيبقى اهل السنة يدافعون عن انفسهم وعقائدهم امام الاخرين وتحسب افكارهم داخل ردود افعال الاخرين ومتى يستطيع اهل السنة من التجرؤ والتقدم بمفاهيم وقيم اصيلة وجديدة.

ولاننا وصلنا الى درجة الى اعتبار ان الامة السنية وهي الغلبة الغالبة من مجموع المسلمين في العالم تشعر الان ان التهديد الحقيقي بدا من الشيعة كقوة مهددة للسنة. واصبح الصراع الشيعي السني تصادم بين الايمان والهوية وبين هويات متضاربة واصبح مجموع ما يعيشه السنة اليوم في الشرق الاسلامي خاصة هو من وراءه الشيعة وايران وتناسينا او بدانا ننكر التحديات الاخرى التي واجهناها طوال القرن الماضي من القوى العالمية المختلفة. ولنا ان نتجرأ على السؤال هل الشيعة والسلفيون هما مصدر التناحر وان الاصولية لدى الطرفين وربما لدى الاطراف الاعتقادية الاخرى من الذين يدعون الى فرض اعتقادهم بالقوة مع اعتبار ان الخلافات اللاهوتية كانت ومازالت مغذية الصراعات. من الجانب الاخر هل لدينا الشجاعة والاعتراف بان من يمثلون الوسطية وطوائفهم واحزابهم هم من يمثل اهل السنة؟

لازلنا نعتقد اننا حينما نتكلم عن جمهور الاسلام فنحن نعني اهل السنة فهم ليسوا طائفة وانما هم جمهور المسلمين. لذلك توجب اختيار لغة الحوار والمبادرة بالتخطيط للعمل المستقبلي بغية التكامل وضمن جداول زمنية محددة تحت مرتكزات واضحة تعد كمشتركات مستقبلية وتتلخص بالمصالح والثقافة والتنمية تحدد رسم الاستراتيجيات المستقبلية . ويمكننا اعتبار هذا الملتقى واللقاء الخطوة الاولى الذي سيسير بهذا الاتجاه.

والله من وراء القصد

هوية الأمة ومفهوم أهل السنة والجماعة

د محمد عياش الكبيسي

مقدمات

الهوية: التعريف :

يعد مصطلح الهوية من المصطلحات المستحدثة، ولا يعرف أصل لغوي لاشتقاقها إلا ضمير الغائب (هو)،فكأنها تقع جوابا لسؤال:من هو؟

وربما جاءت النسبة لضمير الغائب لأنه الأحوج للتعريف بخلاف ضمير المتكلم المعرف بالذات، وضمير المخاطب المعرف بالحس والمشاهدة.

وفي معناها الاصطلاحي لا تبعد الهوية عن أصل اشتقاقها اللغوي، إذ هي تعريف بآصرة الانتماء والولاء التي تميز مجتمعا ما عن غيره.

إذاً الهوية لا تعنى بكل الأفكار والسلوكيات والنقاشات العلمية إثباتا ونفيا واستدلالا وتفصيلا، بل هي معنية بالصورة الكلية للمجتمع بحيث يتحصل في الذهن التمييز بين هذا المجتمع وغيره.

الهوية... العناصر :

تختلف العناصر بحسب اختلاف الهويات، فالهوية المبنية على فكرة أو معتقد تختلف عن الهوية المبنية مثلا على أساس النسب أو الوطن، ويمكن الإشارة هنا إلى أهم العناصر التي تتشكل منها الهوية في الغالب:

أولا: محور الولاء، وهذا هو العنصر الأساس، فالدين هو محور الولاء في الهوية الدينية، والأرض هي محور الولاء في الهوية الوطنية، والنسب هو محور الولاء في الهوية القبلية..وهكذا، وكل العناصر الأخرى إنما تنبثق من هذا العنصر وتدور في فلكه.

ثانيا: التراث، ويقصد به المعالم الرئيسة التي أفرزتها الحركة العلمية والثقافية المتفاعلة مع محور الولاء، فهناك جهد علمي وفكري يبذله المنتمون لهذه الهوية أو تلك تفسيرا وشرحا أو حوارا ونقاشا أو تقعيدا وتأصيلا..الخ

ثالثا: التاريخ، ويقصد به المعالم الرئيسة للجهد العملي الميداني المتفاعل مع محور الولاء، بناء الدول والإمبراطوريات، الصراعات والتحديات الكبرى..الخ

رابعا: الرموز العلمية والقيادية، فالعنصران الثاني والثالث لا بد أن يفرزا قيادات ثقافية وميدانية، ثم تتحول هذه القيادات إلى رموز مرتبطة بالهوية ارتباطا وثيقا بحيث أن اسم الرمز يستدعي في الذهن الهوية بكاملها

خامسا: الفن، ويقصد به طريقة المجتمع في تعبيره عن هويته واعتزازه بها، وهذا باب واسع يتضمن الشعارات والرايات والنشيد الوطني والأزياء والأعياد ..الخ

الهوية: الأنواع

تصنف الهوية بشكل عام إلى أنواع كثيرة، وهذه التصنيفات تؤثر في السلوك الإنساني المستند إلى الهوية انفتاحا أو انغلاقا، ومن تلك الأنواع :

أولا: الهوية المفتوحة، وهي الهوية التي تسمح لكل إنسان بحملها والانتساب إليها، وهذا الشأن العام في الديانات والمذاهب الفكرية والفلسفية.

ثانيا: الهوية المنغلقة، وهي عكس الأولى، وهذا الشأن العام في القوميات والأوطان والقبائل.

ثالثا:الهوية المتداخلة، وهي الهوية التي يمكن أن تدخل في إطار هوية أوسع، وقد يختلف شكل التداخل بحسب الفلسفة الناظمة، فمثلا يرى البعض أن الهوية الدينية هي الأوسع وتدخل في إطارها الهوية الوطنية، بينما يراها البعض معكوسة، فيتحدثون عن الهوية الدينية كهوية فرعية في مقابل الهوية الكبرى وهي الوطنية أو القومية.

رابعا: الهوية المتضادة، وهي لا تكون إلا بوجود هويتين يستحيل الجمع بينهما، مثل الهوية الإسلامية مثلا مع الهوية المسيحية، وكذلك الهويات المستندة على الأسس العرقية والقومية.

خامسا: الهوية المرنة، وهي الهوية التي تحتمل الاجتهاد والتنوع الداخلي، فالهوية الإسلامية تتسع للكثير من المذاهب والاجتهادات المختلفة، وكذلك الدولة الديمقراطية الحديثة القائمة على حرية الاختيار والتعددية.

سادسا: الهوية الحادة، وهي الهوية التي لا تقبل إلا شكلا واحدا من الأفكار، وفيها شروط قاسية للانتساب، وهذا شأن التنظيمات العسكرية والأحزاب الشمولية.

سابعا: الهوية المزدوجة، وهي الهوية التي تكون إلى جوار هوية أخرى من دون تداخل أو تضاد، وذلك مثل من يمتلك جنسيتين اثنتين، فهو يشعر بالانتماء لهذه الدولة وللدولة الثانية معا وفي وقت واحد.

أهل السنة والجماعة وهوية الأمة

تحليل المصطلح

هناك تصورات كثيرة ومختلفة عن دلالة مصطلح (أهل السنة والجماعة) والحقيقة أن هذا المصطلح لا يحتمل كل تلك الدلالات أو التصورات، فأهل السنّة لا تعني إلا أهل الإسلام، لأن المدلولات الأخرى لكلمة السنّة لا صلة لها بالموضوع وتحمل في داخلها ما يؤكد هذا التباين، فالسنّة قد تطلق ويراد بها (الحديث النبوي الشريف) وهذا المعنى قطعا ليس هو المراد هنا، فالسنة هنا مصدر للتشريع يأتي بعد القرآن الكريم، وأهل السنة يؤمنون بمصدرية القرآن أولا ثم السنة ثم بقية المصادر المعروفة في كتب الأصول، ولا وجه لاختصاص التسمية بهذا المصدر دون بقية المصادر.

وتطلق السنة على معنى النافلة والمستحب ويقابلها الواجب، وهذا المعنى أيضا لا علاقة له بالموضوع، إذ يبعد اختصاص أهل السنة بالنوافل دون الواجبات والأحكام التكليفية الأخرى.

ولكن حينما يقول الرسول عليه الصلاة والسلام: (عليكم بسنتي) فهذا معناه طريقتي، وطريقته عليه الصلاة والسلام هي الإسلام، وليست جزءا من الإسلام، ومن ثم فالمراد بمصطلح(أهل السنة) إنما هو (أهل الإسلام)

أما (الجماعة) فمن المقطوع به أن لم تكن هناك جماعات أو أحزاب على عهد الرسول صلى الله عليه وسلم، فإذا أطلقت هذه اللفظه أيام رسول الله فلا يمكن أن تحمل إلى على جماعة المسلمين كل المسلمين، وهذا بالضبط هو المقصود بقوله عليه الصلاة والسلام (عليكم بالجماعة) وعليه فالجماعة في هذا المصطلح إنا هي الأمة، لكن هوية الأمة من النوع الواسع والمرن والذي يقبل الاجتهاد والتعددية في إطار الثوابت المعروفة.

وعليه فحينما نقول :هوية أهل السنة والجماعة، أو نقول: هوية الأمة الإسلامية، فإننا نتكلم عن هوية واحدة وبدلالة التطابق التام.

لماذا أهل السنة والجماعة ؟

هناك تساؤل قد ينقدح في الذهن وهو إذا كان أهل السنة والجماعة هم الأمة فما فائدة هذا المصطلح؟ أو ما المبرر لوجوده إذا كان لا يضيف معنى جديدا؟

إن هذه الأمة سماها القرآن الكريم بقوله :(هو سماكم المسلمين) وهذا الاسم يجمع كل من ينتمي للاسلام تحت هوية واحدة لها أركانها ومعالمها، لكن بعد خروج الفرق المنحرفة والتي خالفت الأمة في معلم من معالم هويتها أو أكثر مع أنهم لم يتنصلوا من اسم الإسلام ولا من مسمى المسلمين، اقتضت الحاجة أن نميّز بين من بقي من المسلمين على الهوية الإسلامية الأصيلة وهم السواد الأعظم في الأمة، وبين من خرج في أصل من أصولها أو معلم من معالمها، سواء حكمنا بخروجه من الملة أو لم نحكم، إذ أن المعتقدات أو الأفكار المخالفة لهويتنا الإسلامية ليست على درجة واحدة، فمنها ما يصل إلى درجة الردة والكفر ومنها ما هو دون ذلك، فأهل السنة والجماعة هم المتمسكون بالهوية الأصيلة بأركانها ومعالمها الأساس، والآخرون هم من خرموا معلما في تلك الهوية أو أكثر ولم يكن ذلك المعلم محل اجتهاد معتبر.

إن اختيار مصطلح (أهل السنة والجماعة) عند خروج الفرق والطوائف المختلفة في تلك المرحلة من التاريخ أشبه ما يكون باختيار مصطلح (الإسلاميين) اليوم، والذي يميز مجموعات من المسلمين تتفق على حماية الهوية الأصيلة للإسلام بخلاف غير الإسلاميين الذين يعملون وفق مناهج أخرى لا تنبثق من الهوية الإسلامية وإن لم تكن تصل إلى مستوى الردة والخروج من الملة.

عناصر الهوية الإسلامية السنّية

بمنهج علمي وموضوعي يستطيع أي باحث أن يصل إلى حقيقة أن الهوية السنّية هي نفسها الهوية الإسلامية، وربما نستطيع هنا أن نتتبع بإيجاز عناصر الهوية الإسلامية لنكتشف أنها هي نفسها عناصر الهوية السنية:

أولا: في محور الولاء (الإسلام) وهو العنصر الأساس في الهوية، يرفض أهل السنة الزيادة أو النقص في هذا المحور، بل ويرفضون حتى مجرد التقديم أو التأخير ولنأخذ النماذج الآتية:

١- الإيمان بالله، هو محور الهوية الإسلامية في جانبها الغيبي وهو أساس العقيدة وركن الإيمان الأول، وأهل السنة مجمعون على أن لا يقدموا شيئا على هذا الأصل مهما كان، ومن هنا جاء اهتمام أهل السنة بمسألة التوحيد.

٢- محمد –عليه الصلاة والسلام- هو محور الهوية الإسلامية في جانبها البشري، وأهل السنة لا يقدمون بشرا ما على رسول الله، بل هم لا ينظرون إلى كل إنسان إلا من خلال قربه أو بعده من رسول الله، وهذا بخلاف الشيعة الذين جعلوا من الحسين محورا لهويتهم، حتى وصل الاهتمام بذكره وحادثة استشهاده أكثر من ذكر رسول الله وسيرته المباركة.

٣- القرآن هو محور الهوية الإسلامية في جانبها العلمي والمعرفي، وكل المصادر الأخرى تستمد حجيتها من القرآن، وكل المعارف الأخرى إنما توزن بميزان القرآن، وهذا هو شأن أهل السنة في تعهد القرآن تلاوة وحفظا وتفسيرا، بل إنه لا يوجد في سلسلة من روى القرآن الكريم ونقله عبر الأجيال إلا من أهل السنّة، فالشيعة مثلا لا يملكون سندا واحدا للقرآن عن أئمتهم! وبالتالي فهم يقعون في التناقض حينما يؤمنون بالقرآن –على خلاف بينهم- ويكفرون أو يفسقون الصحابة والتابعين الذين جمعوا القرآن ونقلوه.

٤- الكعبة هي محور الهوية الإسلامية في جانبها المكاني، فلا يصح تعظيم بقعة ما من الأرض أكثر من الكعبة، وهذا هو شأن أهل السنة بخلاف الشيعة الذين جعلوا كربلاء أهم من الكعبة نظريا وعمليا، ويكفي الاطلاع على ما كتبه علي شريعتي تحت عنوان (كربلاء أم الكعبة؟) في كتابه المعروف التشيع مسؤولية.

٥- رمضان هو محور الهوية الإسلامية في جانبها الزماني، واهتمام أهل السنة برمضان صياما وقياما وابتهاجا لا يدانيهم فيه أحد، بل إنك تمر في المدن المختلفة أيام رمضان فتستطيع أن تميّز المدينة السنية عن غيرها.

هذه النماذج تشكل فارقا جوهريا بين أهل السنة وغيرهم، كما أنها تدل دلالة قاطعة أن أهل السنة لم يبتكروا لهم معالم جديدة في هويتهم لتميزهم عن غيرهم، وهذه العناصر الخمس لم يكن للاجتهاد البشري دخل في اختيارها أو ترتيبها وإنما هو الوحي المنزه، ولذلك عرف عن أهل السنة قولهم (لله خواص في الأزمنة والأمكنة والأشخاص) بمعنى أن الله هو الذي اختار هذه المعالم لهويتنا وليس للبشر دخل في هذا، لكنك لو سألت الشيعي مثلا عن سند من الوحي لاهتمامه بيوم الطف أو التربة الحسينية..الخ فإنه يعجز لا شك لأن الصنعة البشرية بادية في هذه المعالم.

ثانيا: في محور التفاعل البشري مع الوحي المنزل، نجد أن أهل السنة منسجمون مع كل ما أنتجته الأمة ويشعرون بالانتماء إليه، ولنأخذ هذه النماذج:

١- في التاريخ الإسلامي، ينسجم أهل السنة مع العصر الراشدي ويفضلونه على غيره ثم العصر الأموي والعباسي والعثماني، ودول الإسلام الكبيرة كالدولة الأيوبية ودولة الإسلام في الأندلس ودولة المرابطين

والموحدين..الخ بينما نجد الطوائف الأخرى لا تتقبل هذا التاريخ مع أنه تاريخ الأمة، وهذا يدلل على أن أهل السنة هم وحدهم الأمناء على هوية الأمة.

٢- في التراث الإسلامي، يعتز السنة بكل المدارس الكلامية والفقهية التي امتزجت مع حركة الأمة التاريخية، فجهود الأمة العلمية والثقافية محط اهتمام أهل السنة على اختلاف توجهاتها واجتهاداتها، فترى السنة يقرؤون لأبي حنيفة والشافعي ومالك وأحمد ويقرؤون لابن حزم وداود الظاهري كما يقرؤون للأوزاعي والليث بن سعد، ويهتمون بما كتبه الماتريدي والأشعري وابن تيمية على ما بينهم من الخلاف في الاجتهاد والاستنباط، ويعظمون من شأن المفسرين والمحدثين وكل العلوم والفنون الأخرى.

٣- في الرموز الإسلامية، حيث يتغنى أهل السنة بكل رموز الأمة ويوثون حبهم وتعظيمهم للأجيال، مع اختلاف الرموز هؤلاء في مواقفهم وتوجهاتهم، فالمعتصم ينتمي لمدرسة كلامية وفكرية تختلف عن مدرسة صلاح الدين الإيوبي ومحمد الفاتح، لكن أهل السنة يعتزون بهم جميعا، وهذا دليل آخر على مدى الانسجام أو التطابق بين هوية الأمة وهوية أهل السنة والجماعة.

٤- في التعبير الفني عن معالم الهوية، فأهل السنة يعتزون بكل ما أنتجته الأمة في هذا المجال تعبيرا عن ذاتها واعتزازا بهويتها، فشكل الكعبة وزخرفتها جهد بشري لكنه محل اهتمام أهل السنة وكذلك المصف الشريف المطبوع بهذه الخطوط والزخارف المميزة، وقريب من هذا اهتمامهم بالآثار الإسلامية في الأزهر ومساجد اسطنبول ومدارس بغداد والزيتونة والقيروان ومسجد قرطبة..الخ فأهل السنة لا يفقون في هذا بين المنتج العربي أو العثماني، أو التراث الحنفي أو الحنبلي.

من هم أهل السنة والجماعة؟

في خضم المنافسات الداخلية قد يحاول البعض أن يحتكر هذا الاسم لهويته المذهبية الفرعية، كما ادعى بعض الأشاعرة قديما أنهم هم أهل السنة، وكما يدعي بعض السلفية اليوم هذا الادعاء، وهذا نمط من التفكير خطير لكن خطورته تبقى منحصرة في إطارها النظري والنفسي ولا يمكن أن يغير من الواقع شيئا.

أهل السنة والجماعة ليسوا مذهبا فكريا ولا فقهيا ولا حزبا سياسيا ولا مجموعة دعوية أو إصلاحية، أهل السنة هم الأمة بكل تاريخها ورموزها ومذاهبها واجتهاداتها، ويمكن وضع معيار دقيق فيمن ينطبق عليه هذا الاسم فنقول: كل من يشعر بالانتماء لهذه الأمة وهويتها الجامعة بعناصرها ومعالمها المعروفة فهو داخل في مسمى أهل السنة والجماعة، بغض النظر عن انتمائه الفرعي قوميا أو قطريا أو مذهبيا أو حزبيا، وبغض النظر عن مستوى التزامه السلوكي العملي، فأهل السنة

ليسوا رابطة للصلحاء والفضلاء، وبهذا تنفتح الهوية السنّية لتجمع بين السنة بمعناها الديني وبين السنة بمعناها المجتمعي.

وفق هذا المعيار يمكن تصنيف الخارجين عن هذه الهوية بالآتي:

١-الخارجون من الملة بإنكار معلوم من الدين بالضرورة كمن ينكر نبوة محمد صلى الله عليه وسلم، أو يقول بتحريف القرآن ونحو هذا.

٢-الخارجون عن الأمة بالتنكر لتاريخها وأمجادها كمن يتبرأ من الخلفاء الراشدين وجيل الفاتحين، أو يعتقد أن هذه الأمة قد ارتدت بعد نبيها، أو يسمي الفتوحات الإسلامية استعمارا..وهؤلاء وإن اختلف في ردتهم إلا أنهم لا ينتمون قطعا لهذه الأمة وهويتها، وعلى هذا وجب تمييزهم عن الأمة أو تمييز الأمة عنهم، والكلام هنا عن الشعور العام، أما من ينتقد ظاهرة معينة في ذلك التاريخ أو موقفا أو شخصا معينا فهذا الباب مفتوح بضوابطه العلمية، فأهل السنة لا يقدسون التراث أو التاريخ البشري لكنهم لا يبخسون تراث الأمة وتاريخها، وبين التقديس والتبخيس يجد المسلم موقعه الذي يجمع بين اعتزازه بهويته وقدرته أيضا على التدقيق والتمحيص، والتمييز ما بين الوحي المقدس وبين الجهد البشري المتأثر به والمتفاعل معه.

من حيث الواقع يمكن الجزم بأن مدلول أهل السنة ينطبق على الآتي:

أولا: من حيث التحقيب التاريخي لعصور الإسلام الكبرى، يتناول المصطلح دولة الراشدين والأمويين والعباسيين والعثمانيين، وأما الدول الإسلامية المعاصرة فكلها داخلة في الفهوم المجتمعي للسنة عدا إيران، فالشعوب كلها سنية، والحكومات وإن لم تطبق الإسلام كنظام للحكم لكنها في الغالب لا تتنكر له، فهذه الدول هي دول إسلامية سنية، وإن كانت الأنظمة فيها ليست إسلامية، فهذا لا يضر في هوية الدولة وإن كان مضرا بهوية النظام، ولأن النظام لا يعلن خروجه عن الملة ولا عن الأمة، فإذاً هو سنّي مع تقصيره أو ظلمه بمقياس الدين، وهذا ينسجم مع مقولتنا السابقة، أن الهوية السنية ليست رابطة للصلحاء والفضلاء وإنما هي هوية أمة فيها الصالح وفيها الطالح.

ثانيا: من حيث الاجتهاد العلمي والثقافي يستوعب هذا المصطلح كل المدارس الكلامية كالأشاعرة والماتريدية والحنابلة أو السلفية، وكذلك المدارس الفقهية كالمذاهب الأربعة والظاهرية والمجتهدين المعتبرين كالليث والأوزاعي وسفيان الثوري، وكذلم مناهج المفسرين والمحدثين المختلفة، وكذلك المناهج التربوية الصوفية وغيرها.

لكن هناك بعض الإشكالات التفصيلية مثل المعتزلة، والذي أراه أن المعتزلة لم يخرجوا عن مفهوم الأمة، ولا عن مفهوم الملة، والأمة تفخر بإنجازات المأمون والمعتصم، وما حصل من خلاف في بعض المسائل الفلسفية لا يلغي أصل الانتماء والولاء، وهذا ما ينطبق أيضا على الزيدية، فهم وإن اطلق عليه اسم التشيع لكن هذا الاطلاق لم يخرجهم من الملة ولا من الأمة، والعبرة بالحقائق والمعاني وليس بالألفاظ والمباني، ومثلما نتحفظ على بعض فلسفات المعتزلة نتحفظ على بعض آراء الزيدية في الإمامة والسياسة.

ثالثا: الجماعات الإسلامية العاملة اليوم على اختلاف أسمائها ومناهجها المنتسبين لأهل السنة والجماعة، فهذا انتساب صادق ولا يبطل إلا بدليل قاطع، وأما ما يقال مثلا عن الجماعات الصوفية أو جماعة التبليغ والدعوة أنها جماعات تخالف شمولية الإسلام بتبنيها لطروحات مجزأة وقاصرة، فذا غير صحيح، إذ أن هؤلاء يقرؤون القران والسيرة والسنة ويمنون بذلك كله، أما اختيار الأهداف المحددة في العمل الجماعي واقتصار هذه المجموعة على هدف والأخرى على هدف آخر فهذا لا يخدش في العقيدة أو الهوية، كمن يتفرغ مثلا لتدريس العلم أو لبناء المساجد أو لمساعدة الفقراء، فالإسلام الشامل تقوم به الأمة بمجموعها وليس كل فرد أو مجموعة في الأمة مطالبة بأن تتحمل شمولية الإسلام بكاملها.

رابعا: السواد الأعظم الممتد عبر التاريخ والجغرافيا ممن لم يعرف عنهم خروج عن الملة أو خروج عن الأمة مهما تباينت أفكارهم ومواقفهم وسلوكياتهم، فالمنافسة مطلوبة والتمايز مطلوب لكن داخل الإطار الجامع، فلا يصح أن ينعزل العلماء أو الصلحاء بولاء خاص بهم يعزلهم عن الأمة، ولقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يجلس فيأتيه الرجل ورائحة الخمر من فمه، وحينما يقال له :لعنك الله ! يقول رسول الله عليه الصلاة والسلام: (لا تلعنوه فو الله ما علمت إلا أنه يحب الله ورسوله) صحيح البخاري ج ٦ ص ٢٤٨٩ رقم الحديث ٦٣٩٨

تم بحمد الله

==========

التحديات التي تواجه الهوية السنية

وسبل مواجهتها

الكاتب والباحث الدكتور ميسر أحمد المكي

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، وصلاة الله وسلامه على إمام الأنبياء والمرسلين، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، ومن سار على نهجه واستنّ بسنته إلى يوم الدين وبعد:

فإن من إكرام الله تبارك وتعالى وفضله أن هدانا للإسلام واتباع سنة سيد الأنام ﷺ، بل جعل اتباع سنة النبي ﷺ سبباً للسعادة في الدنيا والفلاح يوم القيامة قال تعالى:(لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا)[سورة الأحزاب: (٢١)] وقال تعالى:(مَّنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللّهَ وَمَن تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا) [سورة النساء: (٨٠)].

وزادنا الله عز وجلّ من فضله أن جعلنا من أهل السنة والجماعة، الذين حفظوا سنة النبي ﷺ وبلغوها، وزادوا عن حياضها وحموها، وحفظوها من كل دخيلة ودسيسة، لأن منهجهم هو المنهج الحق الذي نزل به الوحي الأمين، بعيداً عن الإفراط والتفريط، والغلو والجفاء، وقد قال ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى:(يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُواْ الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ، وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ) [سورة آل عمران: (١٠٦- ١٠٧)] قال: الذين ابيضت وجوههم : هم أهل السنة والجماعة، وأما الذين اسودت وجوههم: هم أهل البدع والضلالة، وقال سعيد بن جبير في قوله تعالى:(وإني لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحاً ثم اهتدى) [سورة طه: ٨٢]. قال: (اهتدى) الهداية: هي لزوم السنة والجماعة.

غير أن أعداء الإسلام ومن لف لفهم، وسار في ركابهم، حاولوا الاعتداء على هذا المنهج النبوي القويم، وعلى هويتنا الإسلامية السمحة، فسخّروا إمكانيات هائلة لمحاولة تشويه صورته، والحط من مكانته، والسعي إلى بث الشكوك والريب في نفوس المسلمين، حتى يعيدوا عصر الخرافات والضلالات، وزمن تقديس الصنم والنار، بلبوس الدين والإسلام، ومظاهر وطقوس الإيمان، لكن سعيهم قد خاب، وعملهم قد بار وسيبور إلى يوم القيامة، مادامت هناك عين ساهرة على سنة النبي ﷺ، وقلم ولسان وسيف يحفظون كيانها من جهل الجاهلين، وتحريف الغالين، وكيد الحاقدين.

لهذا كله، أردت أن أسهم في هذا المؤتمر المبارك، وأدلي بدلوي في بحث عنونته: ((التحديات التي تواجه الهوية السنية وسبل مواجهتها)) وقد تضمن البحث مقدمة وتوطئة وأربعة مباحث هي:

التوطئة: تعريفات ومصطلحات وبيان عناصر الهوية الإسلامية ومقوماتها:
المبحث الأول: خصائص الهوية الإسلامية:
المبحث الثاني: الهوية الإسلامية وصراعها مع باقي الهويات:
المبحث الثالث: التحديات التي تواجه الهوية الإسلامية وسبل مواجهتها.
المبحث الرابع: كيفية المحافظة على الهوية الإسلامية.

وختاماً أسأل الله تعالى أن يحفظ لنا ديننا الذي هو عصمة أمرنا، وأن يحيينا على سنة النبي ﷺ وأن يتوفانا ويحشرنا عليها، كما أتوجه بالشكر الجزيل للإخوة الأكارم القائمين على هذا المؤتمر، الذي كان لي الشرف في المشاركة في فعالياته وبرامجه، وأن يجعله في موازين حسناتنا جميعاً، إنه ولي ذلك والقادر عليه، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

توطئة:

لا بد لكل باحث أن يشير في بداية بحثه إلى تعريف بعض المصطلحات الواردة في ثنايا البحث، وبيان حدها ومدلولاتها، لذلك جعلت هذه التوطئة في نقطتين: الأولى: تعريفات ومصطلحات، والثانية: عناصر الهوية الإسلامية ومقوماتها، لأنها تندرج تحت المصطلحات اللازم بيانها.

١ ـ تعريفات ومصطلحات:

تعريفُ الهُويـة:

إن المتتبع لأصل كلمة (الهوية) يجد أنَّ أصلها من كلمة (هو) وهو ضمير منفصل يعود على شخص ما، ولذا فمن الخطأ أن ننطق كلمة الهوية بفتح الهاء بل بضمها فنقول (الهُوية) وليس(الهَوية) فالهوية إذاً هي المرجعية أو الخلفية التي تتشكل منها الشخصية الإنسانية.

والهوية هي: حقيقة الشيء أو الشخص المطلقة، المشتملة على صفاته الجوهرية، والتي تميزه عن غيره، وتسمى أيضاً وحدة الذات. ويشابه هذا التعريف ما جاء في "المعجم الوسيط" الصادر عن مجمع اللغة العربية حيث عرَّفها:(حقيقة الشيء أو الشخص التي تميزه عن غيره).وبعض الباحثين عرَّفها بأنها:(مجموعة العقائد والمبادئ والخصائص التي تجعل أمة ما تشعر بمغايرتها للأمم الأخرى) ولهذا كانت أمة الإسلامية خير أمَّة أخرجت للناس كما قال تعالى: (كنتم خير أمَّة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر)، وخيريَّة هذه الأمَّة نابعة من استقلاليتها التشريعيَّة والعقائديَّة والسلوكيَّة عن غيرها من الأمم الأخرى.

تعريف أهل السنة:

هم أهل السنة والجماعة وهي أكبر طائفة إسلامية وتعادل نسبة ٩٠% من المسلمين، ومصادر التشريع الإسلامي السني هي: القرآن وسنة نبي الإسلام محمد صلى الله عليه وسلم المتمثلة في الأحاديث النبوية المنسوبة إليه والصحيحة منها، ويأخذون الفقه عن الأئمة الأربعة، ويقرون بصحة خلافة الخلفاء الأربعة الأوائل أبو بكر وعمر وعثمان وعلي، ويؤمنون بعدالة كل الصحابة . وعندما نقول الهوية الإسلامية في هذا البحث نعني بها هوية أهل السنة.

٢ـ عناصر الهوية الإسلامية ومقوماتها:

حين يندمج المجتمع المسلم مع مبادئ وأسس الجانب العقدي الإسلامي ويتمثلها واقعاً ومنهجاً للحياة، يكون هذا المجتمع بهذه الصورة معبّراً عن مصطلح الهوية الإسلامية، والهوية تقوم على أربعة أسس وعناصر(الجانب العقدي ـ التاريخ ـ اللغة ـ الأرض) فإن تكونت هذه العناصر الأربعة في الأمَّة المسلمة عبَّرت بمجموعها عن الهوية الإسلامية .

فإذا توافقت هوية الفرد مع هوية مجتمعه كان الأمن والراحة والإحساس بالانتماء، وإذا تصادمت الهويات كانت الأزمة والاغتراب. ومن هنا يمكننا فهم معنى حديث النبي صلى الله عليه وسلم: "بَدَأَ الإِسْلاَمُ غَرِيبًا وَسَيَعُودُ كَمَا بَدَأَ غَرِيبًا؛ فَطُوبىَ لِلْغُرَبَاءِ"[مسلم].

هذه الهوية هي التي تتبناها النفس، وتعتز بالانتساب إليها، والانتماء لها، والانتصار لها، والموالاة والمعاداة على أساسها، فبها تتحدد شخصية المنتمي وسلوكه، وعلى أساسها يفاضل بين البدائل. وأما بالنسبة للمجتمع فهي تعدُّ الحصن لأبنائه، فإذا فُقدت تشتت المجتمع، وتنازعته المتناقضات. و لا جرم أن مقومات الهوية هي العناصر التي تجتمع عليها الأمة بمختلف أقطارها من الوحدة العقدية، ووحدة التاريخ، ووحدة اللغة، والموقع الجغرافي المتميز المتماسك، وأعظمها لا شك هي الوحدة العقدية متمثلة في المنظومة الإسلامية ابتداء من الجانب العقدي ثم الشريعة ثم الأخلاق، والتي يمكن أن يذوب فيها بقية العناصر. والهوية الإسلامية في الحقيقة هي الانتماء إلى الله ورسوله وإلى دين الإسلام، هذا الدين الذي أكمله الله لنا، وأتم علينا به النعمة، وجعلنا به الأمة الوسط وخير أمة أخرجت للناس، وصبغنا بفضله بخير صبغة (صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ)[البقرة:١٣٨].

المبحث الأول: خصائص الهوية الإسلامية:

الهوية الإسلامية لها خصائصها السامية التي تميزها عما سواها من الشرائع والاتجاهات المختلفة، لأنها تشريع إلهي نزل به الوحي الأمين على قلب النبي الكريم ﷺ متكاملاً تاماً، بكل خصائصه ومقوماته ومزاياه.

إنها تشريع معجز لأنه صادر عن خالق السموات والأرض، عن عالم الغيب والشهادة، عن العليم الحكيم: (ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير) [سورة

الملك: ١٤]، وبالتالي لا يعتريه نقص، ولا يتسرب إليه زغل، ولا يشوبه لبس أو غموض، ولا يأتيه باطل من بين يديه ولا من خلفه، ولا يحتاج لعقد مؤتمرات وندوات فكرية دورية لاستكمال الثغرات، وسد الفجوات، وترميم الهفوات، وتطوير أصوله، وتحوير قواعده، لأنه تنـزيل من رب العالمين.

أما القوانين الوضعية، وما شاكلها من شرائع محرّفة، فإنها تحتاج بين الحين والآخر إلى إرسال نظرات فاحصة في قوانينها، لتقويم المعوج، وإقصاء البالي القديم، وتطوير النافع، وإضافة الناجع، لأن هذه القوانين هي صناعة بشرية، أفرزتها أدمغة وعقول البشر في زمن معين، وحقبة تاريخية محددة، ينحسر عطاؤها مع تقادم الزمن، واتساع المعرفة، وتطور العلم، وتبدل وسائل وأساليب الحياة، لأن واضعها الإنسان، والإنسان بحسب تكوينه محدود العقل، أسير الزمن، قصير العمر، شديد التأثر بمؤثرات خارجية عاتية، وداخلية جامحة...

ويمكن لنا تحديد بعض خصائص الهوية الإسلامية فيما يلي:

١- هوية ربانية:

ونعني بالربانية أن أحكام هذه الشريعة الغراء، صادرة عن وحي السماء، وليست من وضع بشر يحكمه العجز والقصور والتقلب.

ولا بد هنا أن نقول – وبكل اعتزاز وافتخار- إن الهوية الإسلامية بربانيتها، هي التشريع الوحيد الذي حافظ على نقاءه وصفاءه وكماله من التحريف والتزييف، لأن الذي تكفَّل بصيانته وحفظه هو القائل: (إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون) [سورة الحجر: ٩].

وبما أن الشرع مصون من التبديل والتحريف، محفوظ من الزيادة والنقصان، مكلوء برعاية الله وعنايته، فهو شارع خالد إلى يوم القيامة.

فالربانية تدل على أن التشريع الإسلامي هو دين خالص، ومنهج قويم، نزل هبة وعطية من عند الله تبارك وتعالى لإسعاد البشرية، ولم يكن لأي أحدٍ من الناس دور في رسم ملامحه أو إرساء قواعده، حتى الرسول ﷺ لم تكن مهمته متعدية التلقي من الله تبارك وتعالى، والتبليغ عن الله عز وجل، وفي هذا يقول ربنا سبحانه وتعالى: (وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ) [سورة الرعد: ٤٠].

ومن هنا تتجلى لنا الأسباب التي جعلت الأديان الأخرى تنحرف نحو الوثنية والضلال، لأنها فتحت أبوابها للأفكار المتعددة، والفلسفات المتنوعة أن تغزو أسسها، وتحوّر ركائزها، وتضيف عليها من مفرزات العقول البشرية مالا يتفق مع فطرة الإنسان وتكوينه وإدراكه عبر العصور والأزمان، ولذلك رمتها سهام النقد، وجرّحتها موازين العالم الحديث الذي لم يعد يرتضي بخرافاتٍ وأوهام، كانت مقبولة لدى شريحة من الناس يوماً من الأيام.

وهذا لا يعني أن التشريع الإسلامي منغلق على ذاته، منكفئ على مبادئه، لا يسمح للعقل البشري بالحركة والعمل، والتفكير والإبداع، والجهد والاجتهاد، بل على العكس من ذلك، فإن الإسلام فتح باب الاجتهاد واستنباط الأحكام إلى يوم القيامة، لكن في فروع الشرعية لا في أصولها، وفي مستجدات الحياة ومعطياتها،

دون المساس بنصوص الوحي الإلهي، إنما بالقياس عليه في استنباط الأحكام وبياناتها.

٢- ملزمة لكل مسلم:

لا يجوز لمسلم الخروج عنها، فهي فرض لازم (قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لا إِلَهَ إِلا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ)[الأعراف:١٥٨]. ويقول النبي ﷺ " وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لاَ يَسْمَعُ بِي أَحَدٌ مِنْ هَذِهِ الأُمَّةِ يَهُودِيٌ وَلاَ نَصْرَانِيٌ، ثُمَّ يَمُوتُ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ، إِلاَّ كَانَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ".

كما أمر الشرع الحنيف المسلمين أن يطبّقوا أحكامه، ويتفاعلوا مع تعاليمه، ويسارعوا إلى تنفيذ أوامره دون تردد أو اختيار قال تعالى: (وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ) [سورة الأحزاب: ٣٦] ، وقال عز وجلّ: (إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا) [سورة النور: ٥١].

وحين يخضع المسلم لأوامر هذا التشريع الحكيم، يفوز بسعادة الدارين، يفوز بسعادة دنيوية، لأن شرع الله تبارك وتعالى هو أحكم وأعدل وأكمل شرع، جاء بكل خير، ونهى عن كل شر، وأمر بكل صلاح وإصلاح، وحرّم كل فساد وإفساد، ووضع من القوانين والتشريعات الكاملة الشاملة ما يسعد الإنسان ويحفظه، ويفوز كذلك بسعادة أخروية، لأن المسلم يشعر أنه بتطبيقه لشرع الله عز وجل يؤدي عبادة يثاب عليها، وقربة يؤجر عليها.

٣- تميزها عمَّا سواها:

وهذا التميز هو الذي يعطي كل قوم مقومات بقائهم، ويحفظ عليهم ثقافتهم ومبادئهم، فلا يذوبون في غيرهم ولذا شمل هذا التميز كل جوانب الحياة بداية من الناحية العقدية (لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ)[الكافرون:٦]، (اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ * صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلا الضَّالِّينَ)[الفاتحة:٦، ٧]. ونهاية بالشكل الظاهر في الملبس والهيئة " إياكم وزي الأعاجم"، ومرورا بكل أمور الحياة العملية "ليس منا من عمل بسنة غيرنا".[الطبراني في الجامع الصغير]. (أَنْتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ)[يونس:٤١].

٤-تستوعب حياة المسلم كلها وكل مظاهر شخصيته:

فهي تامة الموضوع محددة المعالم تحدد لصاحبها بكل دقة ووضوح هدفه ووظيفته وغايته في الحياة: (قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * لا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ)[الأنعام:١٦٢، ١٦٣].

٥- هي مصدر العزة والكرامة:

(وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لا يَعْلَمُونَ)[المنافقون:٨]، (مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعاً)[فاطر:١٠]، (أَيَبْتَغُونَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً)[النساء:١٣٩]. ويقول سيدنا عمر رضي الله عنه: إنا كنا أذل قوم فأعزنا الله بالإسلام فمهما ابتغينا العز في غيره أذلنا الله.

٦- ذات رباط وثيق بين أبنائها:

فهي تجعل الولاء بين أتباعها والمحبة بين أصحابها وتربط بينهم برباط الأخوة والمحبة والنصرة والموالاة، فهم جسد واحد (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ)[الحجرات:١٠]، (فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً)[آل عمران:١٠٣]، وقد ورد في الحديث الشريف" مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى سائر الجسد بالسهر والحمى" مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ.

٧- العالمية:

إن الهوية الإسلامية ذات صبغة عالمية، فهي رحمة للعالمين، ومنارة هداية للناس أجمعين، خطابها شامل عام، يتخطى الحدود والأقاليم، ولا يفرّق بين أبيض وأسود، أو غني وفقير، أو عربي وعجمي، قال تعالى: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّـهِ أَتْقَاكُمْ ۚ إِنَّ اللَّـهَ عَلِيمٌ خَبِيرٍ) سورة الحجرات: ١٣. ، وهذا النص القرآني يجعل ميزان التقوى لواءً مرفوعاً عالياً لجميع الناس، فلا مكان لعصبية عرقية، ولا لعصبية جنسية، ولا لعصبية أرضية، ولا لعصبية قومية، لأن كل هذه العصبيات تعّمق الشرخ، وتزيد القطيعة بين الناس، ولذلك لم يأت حكم شرعي واحد مستنداً إلى هذه العصبيات، إنما جاءت الأحكام الشرعية بصفة إنسانية عالمية شاملة.

٨- الإنسانية:

لقد اعتنى التشريع القرآني بالإنسان اعتناء كبيراً، إلى درجة أن الأحكام التشريعية حفلت بكل ما من شأنه أن يسعد الإنسان، ويصون كرامته، ويحفظ حقوقه، ويلبي حاجاته وتطلعاته المشروعة، ويشذب ويهذب دوافعه وغرائزه وينظمها، ويجيب على الإشكالات التي تطوف في ذهنه وعقله، ويشبع ما الْتهب في جوانحه من أشواق روحية سماوية، ويضبط سلوكه، وينظم علاقته مع نفسه والمجتمع، ولذلك كله شريعة الإسلام شريعة إنسانية... إن التشريع القرآني اعتنى بجسم الإنسان وروحه وعقله:

اعتنى بجسمه:

حيث أمره بالاهتمام والمحافظة على جسمه من كل ضرر، لأنه مسؤول يوم القيامة عن إهماله لأعضاء جسمه ، قال تعالى: (إن السمع والبصر والفؤاد كل ذلك كان عنه مسؤولاً) [سورة الإسراء: ٣٦] ، فهو مسؤول عن سلامة أعضاءه حسياً ومعنوياً، لأن هذه الأعضاء ليست ملكاً للإنسان حتى يهملها إلى حد الضرر والتعطيل، إنما هي في الحقيقة ملك لله تبارك وتعالى... بل إن الإسلام لم يرضَ بإرهاق أعضاء الجسم حتى في العبادات، ولذلك حينما نزل القرآن الكريم، غدا النبي ﷺ يقوم الليل كله بالقرآن تلاوة وتدبراً وذكراً حتى تورمت قدماه، فأنزل الله تعالى (طه، ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى، إلا تذكرة لمن يخشى) [سورة طه: ١-٣].

واعتنى بعقله:

فدعاه إلى استخدام عقله وفكره في كل شؤون حياته، ابتداءً من الإيمان بالله تبارك وتعالى، والتفكير في عظمة الخالق عز وجل، قال تعالى: (إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِلَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ، الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّـهَ

قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ) [سورة آل عمران: ١٩٠-١٩١] ، وأمره أن يجيل بصره في الآفاق والأنفس، ويتفكر في المخلوقات من حوله، قال تعالى: (أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ) [سورة الغاشية: ١٧-٢٠]، وأوجب عليه أن يستخدم عقله في سلوك طريق الإيمان من خلال الدلائل والبراهين الساطعة، التي تدل على وحدانية الخالق تبارك وتعالى، وتدل على صدق نبوة محمد ﷺ من خلال دارسة السيرة النبوية، والنظر في طبيعة الرسالة الخاتمة، وأن لا يركن إلى المماحكة والتقليد الأعمى الذي درج عليه الآباء والأجداد، ولذلك نعى القرآن الكريم هذا النمط من التفكير المنغلق، الذي يقتفي سيرة الآباء والأجداد دون تبصر وتمحيص، قال تعالى: (وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّـهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ) سورة البقرة: [١٧٠].

واعتنى بروحه:

فشرع له من العبادات والطاعات ما يملأ أقطار نفسه سكينة وطمأنينة، وما يسكب في قلبه من الراحة والأنس بعبادة الله عز وجل، ولو نظرنا إلى أذكار الصباح والمساء الواردة عن رسول الله ﷺ لوجدناها تملأ اليوم بليله ونهاره ذكراً وتضرعاً وتحميداً وتسبيحاً، فكيف بباقي العبادات المفروضة والمسنونة والمندوبة.

من هنا جاءت الدعوة القرآنية إلى ضرورة الاهتمام بتزكية النفس من الأدران والآثام، وتطهيرها مما علق بها من رواسب المعاصي، وترقيتها في سلم الصفاء، ومدارج النقاء، حتى تفوز بالفلاح والسعادة في الدارين، قال تعالى: (قد أفلح من زكها، وقد خاب من دساها) [سورة الشمس: ٩-١٠].

المبحث الثاني: الهوية الإسلامية وصراعها مع باقي الهويات:

لقد أدركت كل الأمم أن قضية الهوية قضية محورية، وأن من لم ينتبه إليها سيذوب حتمًا في ثقافة غيره، وستتلاشى مميزاته الخاصة ليكون ذيلاً أو ذنبًا.. وأعداء الأمة لم ولن يتركوها على هويتها الإسلامية،بل يكيدون الليل والنهار، ليزحزحونا عنها ويطمسوها عنا قال تعالى: (وَلا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا)[البقرة:٢١٧] (وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ)[البقرة:١٢٠] (وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً)[النساء:٨٩]، (وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّاراً حَسَداً مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ)[البقرة:١٠٩].

والذي ينبغي أن يتنبه له أهل الإسلام أن الآخرين يحرصون على هوياتهم مع اجتهادهم في تذويب هوية المسلمين وطمس معالمها والنأي بهم بعيداً عن دينهم حتى لا يعود الإسلام إلى الساحة مرة أخرى وهذا واضح من خلال تصريحات القوم وكلامهم: ففي آخر عام ١٩٦٧وفي محاضرة في جامعة برنستون الأمريكية صرح أبا إيبان وزير خارجية إسرائيل حينها: " يحاول بعض الزعماء العرب أن يتعرف إلى نسبه الإسلامي بعد الهزيمة ، وفي ذلك الخطر الحقيقي على إسرائيل ، ولذا كان

من أول واجباتنا أن نبقي العرب على يقين راسخ بنسبهم القومي لا الإسلامي". ويقول الرئيس الأمريكي نيكسون في كتابه انتهز الفرصة": إننا لا نخشى الضربة النووية ولكن نخشى الإسلام والحرب العقائدية التي قد تقضي على الهوية الذاتية للغرب". وقال أيضاً : " إن العالم الإسلامي يشكل واحدا من أكبر التحديات لسياسة الولايات المتحدة الأمريكية الخارجية في القرن الحادي والعشرين". وقد صرح مسؤول في الخارجية الفرنسية منذ فترة بـ: "أن الخطر الحقيقي الذي يهددنا تهديدًا مباشرًا عنيفًا هو الخطر الإسلامي. وإن الأمم التي تريد أن تبقى هي التي تحافظ على هويتها، ولذلك لا عجب أن تحاول كل دولة أو أمة أن تصون لأتباعها هويتهم وتحميهم عن غزو الثقافات الأخرى لثقافتهم.. فعندما رأى الفرنسيون أن اتفاقية الجات تؤدي إلى دخول المواد الثقافية الأمريكية بمعدلات كبيرة لفرنسا مما يشكل تهديداً صارخاً لهويتهم القومية ، رفضوا التوقيع على الجزء الثقافي من الاتفاقية وطالبوا بتخفيض تلك المعدلات. وأما الدولة اللقيطة فحدِّث ولا حرج عن تمسكها بهويتها، فهي لم تقم إلا على أساس الدين اليهودي، وتحمل اسم نبي الله يعقوب "إسرائيل"، وليس لها دستور لأن دستورها التوراة ، ويتشبث اليهود بتعاليمها في السياسة والاجتماع وحياة الأفراد أو هكذا يظهرون، وقد أحيوا اللغة العبرية التي انقرضت من ألفي سنة لتكون لغتهم الخاصة ولغة العلم عندهم .يقول "أدولف كريمر" اليهودي: " جنسيتنا هي دين آبائنا ونحن لا نعترف بأية قومية أو جنسية أخرى". وأعجب من هذا أن يقوم الهندوس في بلاد الهند بمنع بيع الزهور في يوم عيد الحب " فالنتاين" وحرق المحلات التي تبيعه لأن ذلك ليس من الهندوسية ويحارب الثقافة الهندية. وهذا كله إن دلَّ فإنما يدل على مدى محافظة كل أمة على هوية أبنائها وحمايتهم من السقوط في هوة الانبهار بثقافات الآخرين .. فمتى نهتم نحن لهذا ونحوطُ أبناء أمتنا ونحميهم من الوقوع في هذه الحمأة..؟.

ثم إن هناك محاولة خطيرة تستهدف دائماً معارضة القول بأن هناك: ظاهرة تغريب، وغزو ثقافي، أو محاولة احتواء للفكر الإسلامي، أو سيطرة فكر وافد، وتحاول هذه المحاولة أن تعتمد على أمرين:

الأمر الأول هو القول: "أين هذه المؤسسة التي تسمى التغريب" ذلك لأن هذه المؤسسة ليست بناءاً مجسماً له دار ولافتة مكتوب عليها مدرسة التغريب أو مؤسسته وذلك هو تساؤل السذج الأغرار قصيري النظر البسطاء الذين يعدهم التغريب أحسن أدواته وأكثرها نفعاً لأنهم يقومون بخدمته دون أجر، وعلى حساب النوايا الطيبة.

والأمر الثاني: هو مداواة التابعين العملاء الذين هم كالحية الرقطاء يخادعون الناس ويخفون حقيقة ولاءهم.

و مع الأسف أن الذين يشككون في التغريب هم من النوع الأول: أولئك الحمقى الذين طبع الله على قلوبهم، وأعمى أبصارهم.

ذلك أن التغريب لم يَعد بعد هذا الوقت الطويل موضعَ تساؤل أو تشكيك. وربما كان كذلك في الثلاثينيات حيث كان يغطّي العالم الإسلامي والأمة العربية ظلام كثيف وكانت هناك حقائق كثيرة ما تزال محجوبة، ولعل أهمها: بروتوكولات

صهيون التي ظهرت في العالم كله عام ١٩٠٢ م حتى عام ١٩٥٢ م تقريباً وإلى ما بعد أن قامت إسرائيل في قلب الأمة العربية.

ولقد كشفت هذه الحقيقة دعاة التغريب أنفسهم، ولعل أول وثيقة في هذا المجال هي كتاب (وجهة الإسلام) الذي ألفه هاملتون جب مع جماعة من المستشرقين وأعلن فيه صراحة أن هدف البحث هو معرفة:

"إلى أي حد وصلت حركة تغريب الشرق وما هي العوامل التي تحول دون تحقيق هذا التغريب". وذلك للقضاء عليها. ويمكن لقارئ الكتاب أن يستكشف مناهج التغريب واضحة، كالسهام تندفع في أعماق العيون الضالة والمضللة لتسقط عنها غشاوات الغباء والجهل. وجاء بعد ذلك كثيرون فأشاروا إلى ذلك وأوردوا المصادر والوثائق من العرب الدكتوران عمر فروخ والخالدي في كتابهم "التبشير والاستعمار" ومن الغرب: المؤرخ العالمي توينبي في كتابه (العالم والغرب) وهناك عشرات الأدلة والوثائق التي تضع الحقيقة ناصعة أمام من يريدها لوجه الحق. ولا يمالئ فيها خاصة لأقطاب التغريب ودعاة الجنس وعمالقة الغزو الثقافي.

ومن يتابع كتاب "الغارة على العالم الإسلامي" وهو سابق سبقاً بعيداً لكتاب هاملتون جب وقد ترجمه العلامة محب الدين الخطيب في جريدة المؤيد قبل أن يبدأ هذا القرن بسنوات وكان اسمه الحقيقي واضح الدلالة على الهدف هو: فتح العالم الإسلامي يجد أن القضية أكيدة واضحة وأن مخططاتها منسقة وموزعة على المؤسسات: مؤسسة المدرسة والجامعة عن طريق الإرساليات، ومؤسسة الصحافة والثقافة عن طريق الصحيفة والمجلة والكتاب، ثم هناك مؤسسة أخرى أشد خطراً ظهرت من بعد هي مؤسسة القصة والمسرحية والشاشة والإذاعة المسموعة والمرئية.

وليس بعد ذلك دليل على وجود هذه الحقيقة: حقيقة التغريب ولها دعاتها وكتَّابُها المنبثون في مختلف أنحاء العالم الإسلامي، ولعل من يطالع بعض الاجتماعات التي عقدت في إحدى دور الصحف الكبرى يجد أن الأمر واضح وجلي وليس في حاجة إلى دليل جديد أمام الأغرار الحمقى، الذين أعماهم حرصهم على أن يكونوا أتباعاً أذلة للأسماء اللاحقة من كتُّاب الجنس والقصة. وأن يكونوا ثماراً فجة في هذه الشجرة الملعونة التي شاخت وتحطمت.

ولا ريب أن من يرى مؤسسات التبشير والاستشراق وما يصدر من شبهات وتحديات يحكم بما لا يدع مجالاً للشك بوجود هذه الظاهرة وحركتها الدائبة.

وعلينا أن لا نضع اللوم على غيرنا في كل معركة نخوضها مع أعداء الدين، فهناك اتجاهات داخلية تعرقل مسيرة النهضة وتقف عائقاً في بعض الأحيان أمام صراعنا مع الآخر، ومن هذه الاتجاهات ما يعمل على تجميد الإسلام، وصبه في قوالب حجرية، لا تقبل المرونة ولا تسمح بالتغيير، ولا تتسع لانفتاح أو حوار.

ويمثل هذا الاتجاه صنفان متناقضان:

١- صنف يتمسك بأقوال الأقدمين من أئمة المذاهب وأتباعهم لا يحيد عنها، ولا يرضى بها بديلاً، معتقداً أن السلف لم يتركوا شيئاً للخلف، رافضا كل اجتهاد جديد أيا كان صاحبه، وكانت الحاجة إليه، فلا يقبل هؤلاء اجتهاد انتقائياً، ولا إنشائياً

لا فردياً، ولا جماعياً، ظانين أن كتب الأقدمين تحوي كل شيء، وفيها إجابة عن كل سؤال، غافلين عما طرأ على الحياة من تغير هائل، وتطور كبير، بعد الانقلاب الصناعي، والتطور التكنولوجي، والتواصل العالمي، الذي جعل العالم (قرية كبرى) كما قال أحد الأدباء.

وإني أسأل هؤلاء: هل يجدون في كتب الأقدمين حكم زراعة الأعضاء في الجسم البشري، وحكم الملاحة الجوية، وصلاة رواد الفضاء، وتخزين القرآن والحديث في (الحاسوب) وغيرها من القضايا الجديدة؟؟ وهذا الصنف لا يمثل تياراً بارزاً في قلب الصحوة الإسلامية، وإن كان يمثل تياراً كبيراً في قلب الأمة الإسلامية.

٢- وصنف يدعي التمسك بالنصوص، وخصوصا من السنة، رافضاً أقوال المتقدمين والمتأخرين، جاعلاً من نفسه (مذهباً خامساً)، يحكم على المذاهب كلها ولا تحكم عليه! يقول عن الأئمة العظام، بل الصحابة الكرام: هم رجال ونحن رجال! وكثيراً ما يغفل هؤلاء عن طبيعة النصوص الجزئية، ودلالاتها وملابسات ورودها: أهي عامة أم خاصة، مطلقة أم مقيدة، محكمة أم منسوخة، ثابتة أو متغيرة موجبة أو مخيرة، أصلية أم فرعية، قطعية أم ظنية؟

فلابد من النظر في هذا كله، ليعلم ما يقبل تعدد الأفهام وما لا يقبل، وما يحتمل وجهة نظر جديدة وما لا يحتمل، وما تتغير فيه الفتوى بتغير الأزمنة والأمكنة والأعراف والأحوال، وما لا يتغير بحال.

اتجاه تجزئة الإسلام:

ومن هذه الاتجاهات ما يدعو إلى تجزئة الإسلام، وتقطيع أوصاله، فالإسلام منهج كامل لحياة البشر، مادية وروحية، فردية واجتماعية، دينية ودنيوية، مثالية وواقعية، فلابد أن يؤخذ الإسلام كله كما أمر الله، عقيدةً وعبادةً، وأخلاقاً ومعاملةً، وتشريعاً وتوجيهاً وأخوةً وتنظيماً.

فهناك من يريد هذا الدين مجرد عقيدة نظرية بلا عبادة ولا عمل، وحسبك أن تنطق بالشهادتين لتأخذ صكا بدخول الجنة والنجاة من النار، مع أن الإيمان الحق لا يوجد بلا عمل، كما يتضح ذلك من مئات النصوص من القرآن والسنة.

ومنهم من يريد عبادة بلا أخلاق، أو أخلاقاً بلا تعبد، برغم قول الله تعالى (وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون) وقول الرسول "إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق".

ومنهم من يريده عقيدةً وعبادةً وأخلاقاً، ولا يريده تشريعاً ولا نظاماً للحياة.

المبحث الثالث
التحديات التي تواجه الهوية الإسلامية وسبل مواجهتها:

١- التحديات السياسية:

من الواضح للجميع أن هناك تحديات سياسية تواجه هوية أهل السنة والجماعة في مطلع القرن الواحد والعشرين، وكان لها آثاراً سلبية على الأغلب. وهي تحديات داخلية وخارجية:

آ_ التحديات الداخلية : ونذكر من أهمها:

- تطوير النموذج السياسي في البلدان الإسلامية بشكل يضمن المشاركة الشعبية في الحكم على النحو الذي يتفق مع أصول الإسلام وممارساته الصحيحة.
- خطر التفكيك الذي تغذيه قوى العولمة لمصالحها الخاصة مما يهدد باختفاء عدد من الدول الإسلامية في وضعها الراهن.
- الصراعات بين الدول الإسلامية مثل الحرب العراقية الإيرانية، غزو العراق للكويت، ثم الغزو الأمريكي للعراق، وما كان له من تداعيات سلبية على المنطقة برمتها، ثم نتائج الربيع العربي وما فيه من سلبيات وإيجابيات، وما ظهر أخيراً في سورية من حرب واضحة جلية على أهل السنة، وظهور المحور الإيراني الصيني الروسي، والدعم اللا محدود للنظام العلماني الحاكم في سورية (وهو من الأقلية الطائفية) و الذي كشر عن أنيابه للفتك بالأكثرية السنية، وما كان وراء ذلك من ذريعة تمسك بها المكون الأجنبي في معادلة الأمور في المنطقة لتبرير تدخله وبقائه.

ب- التحديات الخارجية : ومن أهم هذه التحديات:

- الصراع العربي الصهيوني.
- سقوط الخطر الشيوعي في مواجهة العالم الرأسمالي وظهور بديل خطر لتكتيل الصفوف والحفاظ على التماسك وهذا البديل هو "الخطر الإسلامي".
- ظهور محور جديد في مواجهة نظام القطب الواحد المتمثل في أمريكا وتبعية الغرب له، وهو المارد الصيني الروسي والذي دعا إلى تحالفات جديدة في العالم، وأشده التحالف الروسي الصيني الإيراني لضرب أهل السنة في سورية، والتصريح الواضح لرئيس الوزراء الروسي ميداييف بأنهم لا يريدون حكماً سنياً في سورية.

٢- التحديات التربوية :

إن من أهم التحديات التربوية التي تواجه الأمة الإسلامية في القرن الحادي والعشرين وواقعه المعاصر هي:

- استيعاب من لهم حق التعليم ومواكبة متطلبات الإنفاق على مختلف أنشطة التعليم والبحث العلمي.
- توجيه سياسات التعليم وأهدافه وخططه ونظمه ومناهجه للمحافظة على هوية أهل السنة .
- مواكبة التعليم لمتطلبات التنمية في المجتمعات الإسلامية من أهل السنة.

- تحقيق نظم التعليم ومناهجه، التوازن بين فروع التعليم وتنوع أنشطته، واتخاذ قراراته على أسس موضوعية.
- مواكبة التعليم للتدفق العلمي والتقدم التقني المعاصر.
- إتاحة سياسة التعليم ونظمه فرصاً كافية للأفراد والمؤسسات السنية للإسهام في اتخاذ القرارات.
- رفع مستوى التخطيط والإدارة والنظم التعليمية وترشيد الإنفاق.
- توقي سلبيات العولمة واستثمار إيجابياتها.
- الارتفاع بمستوى تربية المعلم بما يواكب متطلبات القرن الحادي والعشرين.
- تعليم أبناء الأقليات المسلمة ومتابعة شؤونهم في كافة أنحاء العالم.
- عناية العملية التعليمية بمخاطر دول الجوار والاستعداد لها.
- إصلاح بيت الجامعات الإسلامية وجعلها كمرجعية علمية تربوية للمسلمين.

٣-التحديات الاجتماعية التي تواجه الأمة الإسلامية وسبل مواجهتها :

والتحديات الاجتماعية الرئيسية وهي :-

- البناء الإدراكي للهوية الثقافية لأبناء المجتمعات المسلمة (نوعية منظومة السمات التي تشكل شخصية إنسان المجتمعات الإسلامية – الخصائص العقائدية – الاجتماعية – الثقافية) وذلك من خلال الهوية وما هي المؤسسات المسئولة عن نشر هذا الوعي بين أبناء الأمة.
- التحدي القيمي وهو الذي يثير قضية الأصالة والمعاصرة في الإسلام.
- كيفية تحقيق الاستثمار البشري وهو المدخل الرئيسي للتنمية بكل أنواعها الاقتصادية والاجتماعية والسياسية .
- التحدي الذي يتصل بنقل التكنولوجيا الحديثة واستيعابها وتوظيفها وتطويرها واستنبات وإبداع تكنولوجيات وطنية.
- تآكل الطبقة الوسطى داخل المجتمعات الإسلامية فالطبقة الوسطى هي الطليعة الأساسية الرئيسية للانطلاق الاقتصادي والاجتماعي والسياسي في المجتمعات المختلفة وهي قادرة على تحقيق التلاحم الاجتماعي والتطور السلمي والتوازن بين الماديات والمعنويات.
- غياب المشاركة الشعبية الفعالة على كل المستويات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية مثل: السلوك الانتخابي والحزبي، النقد الاجتماعي، المجتمع المدني، التطوع للعمل الأهلي.
- التعصب والتطرف والانغلاق الفكري والثقافي والسلوكي.
- التحدي الديموغرافي الذي يتخذ أشكالاً مختلفة باختلاف الدول.
- تآكل سيادة الدولة الأمر الذي يؤثر سلباً على قدراتها على قيادة المشروعات الإنمائية العملاقة القادرة على تقليل معدلات الفقر والبطالة والحد من الحرمان من الخدمات واستثمار طاقات البشر.

- التسيب وعدم تملك المهارات الإدارية، فغياب الانضباط الإداري أثر على إعداد المدير الناجح وبالتالي التنمية الإدارية وإعداد الكوادر الإدارية ذات الكفاءة والقدرة.
- مشكلات الأقلية الإسلامية في دول العالم وما تعانيه داخل بلادها.
- أزمة التنوير الزائف.

٤- التحديات التي تواجه الشباب وسبل مواجهتها ومنها:

- غياب الوعي الديني الصحيح الذي يؤكد أن الإسلام دين التوازن والتسامح والعمل والإنتاج.
- غياب أو ندرة القدوة الصالحة أمام الشباب.
- عدم توافر التوجيه التربوي والمهني للشباب خلال مراحل التعليم وما بعد التخرج.
- البطالة.
- تزايد إقبال الشباب على المخدرات.
- تفشي جرائم العنف والتطرف بين الشباب.
- عدم القدرة على الزواج وتكوين الأسر.
- مشكلات الجنس.
- عدم إشباع احتياجات الأطفال.

ولا شك أن أساليب مواجهة هذه التحديات يكون بتضافر جهود جميع الجهات الحكومية الرسمية، والجهات الأهلية، الهيئات الدولية، والمنظمات إقليمية، على كافة المجالات وبجهود تشريعية، تربوية، سياسية، اجتماعية ، اقتصادية ، قانونية ، إدارية تصب جميعاً في مواجهة تلك التحديات.

٥- التحديات الإعلامية التي تواجه الأمة الإسلامية وسبل مواجهتها :

أصبحت وسائل الاتصال قوة طاغية ومؤثرة في حياة الإنسان المعاصر بما حققته من قوة وجذب وإبهار، أصبح من الصعب التمييز بين تأثير الوسيلة وتأثير الرسالة وأصبح النشاط الإعلامي جزءاً رئيسياً من الحياة اليومية للإنسان، وكذلك أصبح من أقوى أسلحة العصر وتكمن القضية هنا في كيفية مواجهة التحديات التي تواجه الأمة الإسلامية وهي مستقبل القرن الحادي والعشرين وكانت أهم التحديات هي:

- أزمة المرجعية الفكرية في العمل الإعلامي لأهل السنة.
- الصورة النمطية المشوهة للإسلام والمسلمين في الإعلام العربي.
- التحديات المتعلقة بوسائل الإعلام في العالم الإسلامي.
- التحديات المتعلقة بالرسالة الإعلامية.
- أخلاقيات الإعلان وأجهزة الإعلام في العالم الإسلامي.
- التحديات الخاصة بالجمهور المتلقي.
- التحديات المتعلقة بالتقنيات الحديثة وتكنولوجيا الاتصال.
- التحديات الخاصة بالتدفق الإعلامي والغزو الثقافي الموجه.
- تحديات البحث العلمي والتخطيط الإعلامي.

- أزمة العولمة والعمل الإعلامي الإسلامي.
- أزمة الأقليات المسلمة والإعلام الدولي.
- التحديات الإعلامية التي تواجه الطفل المسلم من أهل السنة.
- أزمة الحرية وحق الاتصال في أجهزة الإعلام في العالم الإسلامي
- تحديات الإعلام الغربي والإعلام الطائفي المناهض لأهل السنة.
- العمل على إنشاء شركات إسلامية لأهل السنة للإنتاج التليفزيوني.
- الاستفادة من تكنولوجيا الأقمار الصناعية والتطورات الكبيرة في وسائل الإعلام الدولية لمناهضة الغزو الإعلامي المعادي.
- تفعيل الدور الذي تضطلع به المراكز الإعلامية والثقافية الإسلامية في الخارج، وحثها على أداء واجبها تجاه أهل السنة ولتكون منارات علمية وثقافية تجمع تحت لواءها الأقليات المسلمة في الخارج وترعى شؤونها، وتحل مشاكلها.
- تأهيل الكوادر الإعلامية من أهل السنة القادرة على مخاطبة الرأي العام الدولي.
- خلق قنوات للحوار مع القيادات الفكرية وقادة الرأي والقيادات الإعلامية في العالم الغربي.
- تزويد الأقليات العربية والمسلمة بمجريات الأحداث في العالمين العربي والإسلامي وربطهم بالوطن الأم واستثمار إمكاناتهم لتصحيح الصورة والرد على المزاعم والافتراءات من الإعلام الغربي الصهيوني الطائفي المعادي. ونكتفي بهذه التحديات الخمس الأساسية حتى لا نطيل فهناك تحديات علمية كثيرة وتحديات قانونية وتحديات حضارية.. لا مجال لذكرها في هذه العجالة.

المبحث الرابع: كيفية المحافظة على الهوية الإسلامية:

إن دين الإسلام يُعْنى بتأكيد الهوية الخاصة ويرفض أطروحات الغرب العقدية والتشريعية، ويأمر بمخالفتها، فالله تعالى يقول :(وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا). وقد روى الصحابي الجليل أنس بن مالك رضي الله عنه أنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قدم المدينة وأهل المدينة لهم يومان يلعبون فيهما، فقال: ما هذان اليومان قالوا: كنَّا نلعب فيهما بالجاهليَّة، فقال صلى الله عليه وسلم: إنَّ الله أبدلكم بهما خيراً منهما يوم الأضحى ويوم الفطر) أخرجه أبو داود بسند صحيح.قال الحافظ الذهبي رحمه الله:(فإذا كان للنصارى عيد ولليهود عيد كانوا مختصين به فلا يشركهم فيه مسلم كما لا يشاركهم في شرعتهم ولا قبلتهم) .وجاء عن الشريد بن سويد قال: مرَّ بي رسول الله وأنا جالس هكذا وقد وضعت يدي اليسرى خلف ظهري واتَّكأت على إلية يدي فقال عليه الصلاة والسلام: أتقعد قعدة المغضوب عليهم) أخرجه أبو داود، والمقصود بالمغضوب عليهم: اليهود. إنَّ محافظة الأمة المسلمة على هويتها الإسلامية، والاعتزاز بهذا الدين العظيم ، يولِّد لديها الشعور بأنَّها الأمَّة التي اصطفاها الله بين العالمين لخيريتها وسمو تشريعاتها، ولكنَّا وللأسف نرى أناساً من المثقفين العرب

وغيرهم ، يكفرون بهويتهم ، وينقلبون على واقعهم الإسلامي بالهمز واللمز ، بل ويذوبون في المشروعات الغربيَّة المناهضة للمشروع الإسلامي، و التغريب هي القنطرة التي عبرت عليها العلمانية إلى الشرق ، وهذا التغريب لم يكن لحظة انبهار؛ لأن الانبهار يزول سريعاً فتبدو الأشياء على حقيقتها ، وإنما كان لحظة عمى وعمهٍ حضاري، كان لحظة تعاقد تآمري أو على حد تعبير د. محمد عمارة في كتابه(عمالة فكرية وحضارية). وأول أمر أجده مهماً ورئيساً في الحفاظ على الهويَّة الإسلاميَّة؛ تعميق الإيمان بالله تعالى فإنَ له أثراً كبيراً في تحصين القلب ضدَّ الأفكار الهدَّامة. فإذا صححنا منهج التلقي، وصححنا بناء على ذلك ما انحرف في حس المسلمين المتأخرين من مفاهيم الإسلام الرئيسية، بقيت علينا مهمة أخرى لا تقل خطراً، هي مهمة التربية على المفاهيم الصحيحة لهذا الدين. وأخيراً سأسوق قصَّة مفيدة في هذا المجال، تدلل على مدى ضرورة المحافظة على الهوية لكل أمَّة تريد أن تصنع لنفسها الكينونة والخصوصية التي تتسم بها ، فنحن نعلم ما وصلته اليابان من تقنية وتقدم لا ينكره منكر، ونتذكر جيداً أنَّ اليابانيين حين ضربتهم أمريكا بالقنبلة النووية ودمَّرت ناكازاكي وهيروشيما ، رأوا أنَّ من أسباب ضعفهم عدم قدرتهم على مواجهة الأمريكان ، وقلَّة المعلومات التقنيَّة التي لديهم ؛ فأرادوا تحقيق المناعة واستقطاب المعلومات التي يجهلونها فأرسلوا البعثات للتعلم في بلاد الغرب والنهل من علومهم، حتى يرجعوا إلى اليابان وينقلوا إلى أرضها تلك التجارب الغربية الطبيعية فتنهض دولتهم ، وحين بعثت أول بعثة يابانية إلى دول الغرب رجعوا إلى بلادهم متحللين من مبادئهم ، ذائبين في الشخصية الغربية ، فما كان من اليابانيين إلاَّ أن أحرقوهم جميعاً على مرأى من الناس في طوكيو ، ليروا عاقبة من تنكر لأمته وقيمه ، ولم يرعَ المسؤولية التي أُنيطت به ، وبعد ذلك أرسل اليابانيون بعثة أخرى ، وأرسلوا معها مراقباً يراقبهم أولاً فأول ، من ناحية ثباتهم على عقيدتهم وخصوصياتهم البوذية ، ومراقبة انهماكهم في استقطاب واجتذاب المعلومات التي يجهلونها لينقلوها في واقع بلادهم ، وتمضي الأيام وتكون اليابان من أكبر الدول التقنية في العالم أجمع ، بل والمنافسة والمسابقة لأمريكا وأوروبا في كثير من التخصصات التقنية. أليس في هذه القصة درس وعبرة بما يفعله الآخرون من غير المسلمين في الحفاظ على هويتهم، ومع ذلك وصلوا ونجحوا، وذلك لمحافظتهم على الخصوصية والهوية الخاصَّة بهم، فأولى بنا وبالأمة المشهود لها بالخيرية والوسطية بأن يكون أبناؤها خير أناس يحافظون على هوية الأمة الإسلامية ، ويرعون هويتهم حقَّ رعايتها ؟! هنالك نقطة ذات أولويَّة في نظري وتسهم في المحافظة على الهويَّة والخصوصيَّة الإسلامية مما يسمى:(عولمة الثقافة) وإشعار هذه الأمة بخطورة هذه الفكرة، وأنَّ فحواها ومحتواها طمس الخصوصيات الإسلاميَّة ، وإشغال الأمَّة المسلمة بما لدى الأمم الغربيَّة والأمريكيَّة على وجه الخصوص من ثقافات جديدة ، وإغراقهم في المستنقع الثقافي لما يسمَّى بالقرية الكونية [وإذا كانت وزيرة الثقافة الدانماركيَّة اشتكت من هيمنة الثقافة الأمريكيَّة ، وقالت :"لم يعد يحتمل هذا الغزو" وإذا كان الرئيس الفرنسي السابق (فرانسو ميتيران) وقف يخطب في الجموع المحتشدة محذِّراً من تفشّي ظاهرة لبس الجينز بين الشباب الفرنسي لأنَّه مظهر من

مظاهر الغزو الأمريكي) فإنَّا بوصفنا مسلمين يلزمنا، أن نحذر من ذلك ونكون أشدّ إصراراً على المحافظة على هويتنا وخصوصياتنا وقيمنا ، وعدم التشبه بأعداء الإسلام ، كيف ورسولنا عليه الصلاة والسلام حذَّرنا من ذلك وقال :(من تشبَّه بقوم فهو منهم) أخرجه أحمد وحسَّنه ابن حجر. وأخيراً نبين باختصار أهم وأبرز الأساليب للحفاظ على الهوية الإسلامية:

١ـ التعلُّق بالله ـ عزَّ وجل ـ والاستعانة والاستعاذة به ، وسؤاله الهداية والثبات والممات على دين الإسلام من غير تبديل ولا تغيير.

٢ـ الثِّقة بمنهج الله ووعده وحكمه وأوامره ، واليقين به ومراقبته ، والشعور بالمسؤوليَّة عن حفظ الدين من شبهات المغرضين ، وعدم خلطه بالباطل.

٣ـ تلقِّي العلم عن العلماء الربَّانيين ، وإرجاع المسائل المشكلة إليهم ليحلُّوها ويوضِّحوا ما أبهم على صاحبها، فلا يستعجل في قبول فكرةٍ أطلقها من لا يؤمن فكره ، ولا يبقي تلك الشُّبهة في صدره حتَّى تعظم ، بل ينبغي عليه أن يضبط نفسه بالرجوع للراسخين من أهل العلم ؛ فإن الله ـ تعالى ـ يقول:(فاسألوا أهل الذكر إن كنت لا تعلمون).

٤ـ البناء الذاتي بمعرفة مصادر التَّلقي ، ومناهج الاستدلال الصحيحة ، وملء القلب بنور الوحي من الكتاب والسنَّة، مع ملازمة إجماع أهل السنَّة والجماعة.

٥ـ التعلُّق بكتاب الله قراءة وفقهاً وتدبُّراً وعملاً ، ولو أقبل الخلق على كتاب الله والانتهاج بنهجه ، لأجارهم ـ سبحانه ـ من الفتن ، فالقرآن شفاء لما في الصدور ، ومن يعرض عنه فسيصيبه من العذاب بقدر ابتعاده عنه (وألَّو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم ماءً غدقاً * لنفتنهم فيه ومن يعرض عن ذكر ربِّه يسلكه عذاباً صعدا).

٦ـ تكثيف البرامج التوجيهيَّة ، وأخصُّ بالذكر وسائل الإعلام بشتَّى أصنافها ، ومحاولة زرع الثقة في قلوب المسلمين بالاعتزاز بدينهم وعقيدتهم

٧ـ إنشاء مراكز الأبحاث والدراسات المعنيَّة برصد الانحرافات الفكريَّة ، والتعقيب عليها بتفنيد الشُّبه ، والجواب عن الشكوك و الإثارات التي تخرج من بعض المارقين من قيم الإسلام ومبادئه ، والجهاد الفكري ضدَّها، من منطلق قوله تعالى:(وجاهدهم به جهاداً كبيراً).

٨ـ التربية للنشء بما يرضي الله ، والتحاور معه بتبيين فساد شبهات أهل الزيغ والهوى ، مع قوَّة الإقناع، وأدب الحوار ، فالتنشئة الصحيحة على التحصين العقدي هي أول عمليَّة في التربية.

الخاتمة

وختاماً: فقد تعرّضت في هذا البحث إلى الحديث عن أبرز ملامح الهوية الإسلامية وأكثر ما يواجهها من تحديات وعقبات، فقد ابتدأت بحثي في توطئة بيّنت فيها المصطلحات الواردة في ثنايا البحث، كمصطلح (مصطلح الهوية – ومصطلح الأمة الإسلامية)ثم ذكرت أبرز العناصر التي يجب أن تتوافر في هوية المسلم وشخصيته، مبيناً ضرورة الحث عليها ومراعاتها.

ثم عرّجت في المبحث الأول للحديث عن خصائص الهوية الإسلامية، وأكدت على أهمية الالتزام بها، لأن الخصائص هي التي تجسد الهوية الإسلامية وتميزها عن غيرها.

وجاء المبحث الثاني للحديث عن صور الصراع والعراك التي دخلت ميدان الهوية الإسلامية من الثقافات والهويات المختلفة، وفي المبحث الثالث تحدثت عن أبرز التحديات التي تواجه الهوية الإسلامية وسبل مواجهتها، فتحدثت عن التحديات التي تواجه الهوية الإسلامية الداخلية والخارجية، وأومأت إلى التحديات التربوية والاجتماعية والشبابية والإعلامية. وفي المبحث الأخير تعرّضت للحديث عن كيفية المحافظة على الهوية الإسلامية، وذكرت العديد من الأساليب والمناهج التي تكون كفيلة – إن التزمنا بها – في المحافظة على منهجنا وسنة نبينا ﷺ، كما أورد العديد من الوصايا والمقترحات في سبيل ذلك... والحمد لله رب العالمين.

أهم المصادر والمراجع:

القرآن الكريم.
كتب الحديث الشريف.
تفسير القرآن العظيم لابن كثير.
تفسير روح المعاني للألوسي .
الدر المنثور للسيوطي.
الإتقان في علوم القرآن للسيوطي .
الإسلام بين التنوير والتزوير د. محمد عمارة.
مفاهيم ينبغي أن تصحَّح ـ أ. محمد قطب.
أمريكا والإسلام، د. مختار المسلاتي.
تجديد الوعي ، د. عبد الكريم بكَّار.
التغريب أخطر التحديات في وجه الإسلام، الأستاذ أنور الجندي.
دور التربية في الحفاظ على الهوية الثقافية للمجتمع العربي، د. هاني موسى.
الصحوة الإسلامية وهموم الوطن العربي والإسلامي، د. يوسف القرضاوي.
الصحوة الإسلامية، د. عبد الكريم بكار.
عمالة فكرية وحضارية، د. محمد عمار.
الإستراتيجيات المفاهيمية للعولمة- وبدائلها آثار العولمة على العالم الإسلامي: أ.د. محمد السيد سليم، موقع الإسلام على الطريق(الإسلام وتحديات الحكم، مركز دراسات الشرق الأوسط في الأردن. الإنترنت) ٢٠٠٣/٠٣/٣٠م).
التحديات التي تواجه الأمة الإسلامية خلال القرن الحادي والعشرين، تأليف مجموعة من الباحثين، الناشر- رابطة الجامعات الإسلامية، عمان_ الأردن.
المعجم الوسيط.
منابع مشكلات الأمة الإسلامية، د. مقداد يالجن.
مجلة المسلمون، العدد الأول من المجلّد الخامس، تموز ١٩٦٣ .
مجلة هذه سبيلي العدد : ٢ .

المحدثون ومصطلح (أهل السنة والجماعة):
الاتفاق والافتراق

د. محمود المصري

مما لا شك فيه أن مذهب أهل السنة والجماعة يعدّ من أكثر المذاهب الإسلامية انتشارا في العالم الإسلامي قديما وحديثا، إذ ينتسب إليه ٩٠% من المسلمين في العالم. وأهل السنة والجماعة هم الغالبية الساحقة في دول العالم الإسلامي اليوم، والتي هي خمسون دولة باستثناء إيران وأذربيجان حيث يشكل الشيعة الاثني عشرية الأغلبية، وسلطنة عمان حيث يشكل الإباضية الأغلبية.

ومن المعلوم أنه شاع تياران فكريان عند علماء السنة في إثبات العقائد، الأول يعتمد على النص فقط، والثاني يعتمد على النص والعقل معا. وقد تجاذبَ أصحابَ الحديث طوائفُ عدّة، كلٌ يريد أن يَنتسب إليهم أو أن يَنسبهم إليه، فما حقيقة انتمائهم؟ وما موقعهم من أهل السنة والجماعة؟ وكيف تبلور مفهوم أهل السنة والجماعة عندهم؟ هذا ما سوف نحاول الإجابة عليه في طيات البحث.

١ ـ المحدثون وأهل السنة والجماعة: تاريخ المصطلح وتطوره:

بدأ ظهور تمييز المسلمين الذين هم استمرارٌ لهدي النبوة من أهل البدع، بظهور الخوارج في عهد سيدنا علي، ثم بعد وفاته بظهور الفرق الشيعية، لكنّ مصطلح (أهل السنة والجماعة) كعَلَم على الطائفة التي تمثل الإسلام الحقيقي مقابل مجموع (أهل البدع) ظهر في نهاية العصر الأموي، ولم يشتهر إلا في منتصف العصر العباسي، وذلك أن كثيرا من الصحابة أمثال ابن عمر وأنس بن مالك وسعد بن أبي وقاص، تجنبوا الخوض في الخلاف حرصا على وحدة الكلمة بين المسلمين.

ولعل أول من استعمل هذا المصطلح هو محمد بن سيرين، كما أخرج مسلم في مقدمة الصحيح بسنده إلى ابن سيرين أنه قال: "كانوا لا يسألون عن الإسناد، فلما وقعت الفتنة، قالوا: سَمُّوا لنا رجالكم، فيُنْظر إلى (أهل السنة) فيُؤخذ حديثهم، ويُنْظر إلى (أهل البدعة) فيُردّ حديثهم".

وقد نقل الصحابة سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى مَن بعدهم بمنهج شفاهي غايةٍ في التثبت، ثم أمر عمر بن عبد العزيز بتدوينها، فتم ذلك وفق منهج علمي محكم، واكتمل في القرن الثالث الهجري، وتبنى فقهاء المذاهب الأربعة منهج فقهاء المدينة باعتمادهم على الكتاب والسنة والنقل عنهم. وقد تتلمذ الإمام مالك على يد ربيعة بن فروخ وهو أحد فقهاء المدينة السبعة. وكان إماما الحديث البخاري ومسلم يحتجان بربيعة[١]. وتميز الأئمة الذين جمعوا الحديث من غيرهم من الذين رفضوا الصحابة وخاضوا فيما وقع بينهم. فأهل الحديث يقولون بعدالة الصحابة

[١] الكواكب النيرات في معرفة الرواة الثقات للكيال ١٦٣، ١٦٧.

جميعا، ويقرون بخلافة أبي بكر وعمر وعثمان، خلافا للرافضة. وكان جمع الحديث في بداية الدولة العباسية التي تميزت في عهدها المدارس الفقهية الأربعة، والتي اعتمدها العباسيون لا حقاً بشكل رسمي. فالعباسيون سنّة لأنهم اعتمدوا المدارس الأربعة للمذهب السني، وشيعة من اعتبار أنهم كانوا يدعون لآل البيت ليس غير.

وقد استمد فقهاء المذاهب الأربعة علومهم من عقيدة وعبادات ومعاملات وأخلاق من المصادر التشريعية المتفق عليها من الكتاب والسنة والإجماع والقياس، ولم يختلفوا في العقائد، وإنما اختلفوا في الفروع، لأسباب بحثوها في أصول الفقه. وهكذا فقد كان لمرونة التشريع من جهة والبيئات المختلفة التي اقتضاها تنوع التوزع الجغرافي لبلاد المسلمين من جهة أخرى أثرهما في أن يضع كل إمام قواعد في المذهب يلتزم بها أتباعه من المجتهدين في المذهب لإصدار الأحكام للوقائع المستجدة في كل زمان ومكان. ومع أنه ظهر مجتهدون آخرون مثل الليث بن سعد والأوزاعي وغيرهم إلا أنه لم تخدم مذاهبهم ولم ينتقل تراثهم ويستمر من خلال الأتباع، كما تهيأ لأصحاب المذاهب الأربعة.

كانت نقطة التحول الكبيرة في الصراع بين أهل الحديث والمعتزلة في العصر العباسي هي ظهور أبي الحسن الأشعري وتصديه للمعتزلة، فالتف حوله أهل الحديث باعتباره أقوى معبر عن عقائد أهل السنة في مواجهة المعتزلة وغيرها من الفرق التي اعتبرها أهل السنة مخالفة للعقيدة الصحيحة للإسلام، ومن المعلوم أنه استعمل الحجج العقلية والبراهين منطقية سعيًا لإثبات عقيدة السلف. وفي عهد دولة السلاجقة ازدهر انتشار عقيدة أهل السنة وفق المنهج الأشعري، حيث بنى نظام الملك مدرستي النظامية في بغداد ونيسابور[٢]. وأصبحت العقيدة الرسمية لدولة الخلافة العباسية عندما نشر الخليفة القادر مرسوماً بالاعتقاد الرسمي للدولة عرف باسم "العقيدة القادرية". ثم توسع انتشار العقيدة الأشعرية بعد أن انتصر السلطان صلاح الدين الأيوبي على الفاطميين في مصر وقضى على العقيدة الإسماعيلية الشيعية التي كانت مفروضة من قبلهم. ثم تبعه على ذلك سائر سلاطين الأيوبيين والمماليك. ثم اعتمدت الدولة العثمانية المذهب الماتريدي.

ونحن اليوم نرى ظاهرة الجغرافية المذهبية تشكل أزمة كبيرة في العالم الإسلامي، وهذه الأزمة تحرم الأمة من الإفادة من تراثها العلمي والفكري العظيم المتنوع الذي أراد الله بحكمته أن يكون مقبولا عنده رغم اختلافه، وقد ألقت هذه الأزمة ظلالها على دول شرق آسيا حيث لا نرى قبول هذه الدول لغير المذهب الحنفي مرتبطا بالعقيدة الماتريدية، وقلما نرى مدرسة غنية فيها تدعو للتنوع والثراء مثل مدرسة أبي الحسن الندوي، وبالمقابل فإن المغرب العربي حدّد نفسه بالمذهب المالكي مقترنا بالعقيدة الأشعرية، وقلما نرى مدرسة متنوعة استفادت من ثراء الأمة الفكري مثل مدرسة الشيخ بن بيه، وفي تركيا نجد أن قاعدة صارمة تحكم الأمور فكل تركي حنفي ماتريدي وكل كردي شافعي أشعري، بينما تحددت الشيعة بمذهب الاثنى عشرية مقرونا ببقايا العقيدة المعتزلية، على ما فيهما من إشكالات لم يقبلها جمهور علماء المسلمين عبر قرون الإسلام وبينوا فسادها، فضلا عن كونها مشوبة

---

[٢] الكامل في التاريخ لابن الأثير ٢١٢/٨.

بضلالات بغض الصحابة وعداء أهل السنة وتكفيرهم، والتشكيك بقرآنهم، بينما انتشرت اللامذهبية في الجزيرة العربية مقترنة بدعوى العقائد الأثرية، التي فسروها على هواهم ممزوجة -مع الأسف- بإشكاليات التجسيم والتشبيه وحظر المباح وتكفير المسلمين الذين يشكلون الأغلبية الساحقة في العالم الإسلامي من أشاعرة وماتريدية، وهذا ما نجده واضحا عند المغالين منهم، وقلما نجد في هذه البقعة الجغرافية مدرسة اعتمدت المنهج الفقهي الحديثي العقدي الذي أقره أهل السنة عبر تاريخ الإسلام، مثل المدرسة المتميزة للشيخ محمد علوي المالكي. بينما نرى في معظم بلاد الغرب انتشار اللامذهبية مقترنة بالفكر المضطرب المشوش، وقلما نرى انتشارا للمدارس السنية المتوازنة، مثل مدرسة الزيتونة في كاليفورنيا. ولا تزال بلاد الرافدين والشام ومصر وبعض البلاد الأخرى مثل الكويت تفيد من ثراء المذاهب الأربعة، وتنشر فكرهم وقواعدهم وأصولهم وفروعهم، وتحقق مخطوطات كتبهم، وتعتني بها. وخير مثال على هذا الموسوعة الفقهية التي قام عليها كبار الأساتذة المعاصرين من فقهاء الشام، وتبنتها حكومة الكويت، وكتاب الفقه الإسلامي وأدلته للدكتور وهبة الزحيلي، وكتاب إعلام الأنام للدكتور نور الدين عتر الذي ربط فقه المذاهب الأربعة بالسنة النبوية مؤصلا ومؤسسا.

٢ـ مكانة السنة عند أهل السنة والجماعة:

من المتفق عليه بين جميع طوائف أهل السنة والجماعة أن السنة هي المبينة للقرآن الكريم والمفصلة لمجمله والمقيدة لمطلقه والمخصصة لعامه، فوجب تعظيم السنة وتعيَّن التمسك بها والعمل بمقتضاها ونصرتها، واستدلوا بتواتر الأخبار التي توجب ذلك في الكتاب والسنة والإجماع. ونحن نرى اليوم ظهور طائفة شذّت عن أهل السنة والجماعة، فأنكرت السنة، ولم تر العمل بها، وادعت إمكانية الاكتفاء بالقرآن الكريم، لاعتقادهم أن الله قد وعد بحفظ القرآن فقال: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ (الحجر ٩) ويستدلون على ذلك بأن القرآن هو الكتاب الوحيد الذي اجتمع المسلمون كافة على صحته، بينما الأحاديث فيها اختلاف كثير على صحتها، كما لا يعتدون بأقوال السلف أو إجماع العلماء أو القياس وغيرها من مصادر التشريع الإسلامي. وقد سمى هؤلاء أنفسهم بالقرآنيين، وهم يشكلون ظاهرة منتشرة في تركيا مع الأسف. وقد كان لهؤلاء نظراء من أهل البدع منذ عهد الصحابة. وها هو عمران بن الحصين رضي الله عنه الصحابي الذي كان راويةً لحديث رسول الله ﷺ يشنع على من قال له: لا تتحدثوا إلا بما في القرآن، عندما كانوا يتذاكرون حديث رسول الله، فقال له: إِنَّكَ امْرُؤٌ أَحْمَقُ، أَتَجِدُ فِي كِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى الظُّهْرَ أَرْبَعًا لَا تَجْهَرُ فِيهَا بِالْقِرَاءَةِ؟ ثُمَّ عَدَّدَ عَلَيْهِ الصَّلَاةَ وَالزَّكَاةَ وَنَحْوَهُمَا، ثُمَّ قَالَ: أَتَجِدُ هَذَا فِي كِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى مُفَسَّرًا؟ إِنَّ كِتَابَ اللَّهِ أَحْكَمَ ذَلِكَ، وَإِنَّ السُّنَّةَ تُفَسِّرُ ذَلِكَ". وفي رواية: لَما نحن فيه يعدل القرآن. وفي رواية: أي قوم خذوا عنَّا، فإنَّكم والله إن لا تفعلوا لتضُلُّن[٣]. وفي عصر التابعين يروي أيوب السختياني: أن رجلاً قال لمطرف بن عبد الله ابن

---

[٣] الشريعة للآجري ٤١٦/١، ومصنف عبد الرزاق ٢٥٥/١١، والبيهقي في مدخل الدلائل ١ / ٢٥، وأخرجه الخطيب في الكفاية ٤٨، وأبو عمر بن عبد البر في الجامع ٢ / ١٩١.

الشخير: لا تحدثونا إلا بما في القرآن، فقال له مطرف: "إنَّا والله ما نريد بالقرآن بدلاً، ولكنا نريد من هو أعلم بالقرآن منا"[٤].

ويبدو أن هذه حالات فردية، ولم تتخذ طابعاً جماعياً إلا أواخر القرن الثاني، غير أنه لا توجد معلومات تفصيلية عن هذه الجماعة في ذلك الوقت إلا ما ورد في كتاب "جماع العلم" من كتاب "الأم" للإمام الشافعي حيث قال: "باب حكاية قول الطائفة التي ردَّت الأخبار كلها". ثم شرع في الردِّ عليهم. ومنذ ذلك الحين نجد طوائف شاذة تتبنى هذا الاتجاه.

ويعّد الرافضة ممن ردَّ السُّنَّة مطلقاً لأنهم يعتقدون الحكم بالردَّة على الصحابة رضي الله عنهم إلا قليلا منهم، وعلى ذلك فكل ما جاء من طريقهم من السُّنَّة فهو مردود، لاسيما وهم يتَّهمونهم أيضاً بالكذب والخيانة في تبليغ الرسالة، وأنهم كتموا كثيرا من القرآن، وأما ما يعملون به مما يسمونه حديثاً أو سُنَّة فهو في الحقيقة لا أصل له يعتمد على أسانيد مختلقة فيها رجال مجهولون، لا ترجمة لهم، إضافة إلى عدم وجود علم الجرح والتعديل الذي هو الأساس في ضبط الرواية لديهم، لتوثيقهم لرجال الأسانيد من أهل البيت دون النظر في حالهم.

وقد رد على هذه البدعة كثير من العلماء، ومنهم ابن حزم الأندلسي والشاطبي والسيوطي في كتابه: مفتاح الجنة في الاحتجاج بالسنة. ومن المعاصرين الدكتور مصطفى السباعي والدكتور نور الدين عتر والدكتور محمود حمدي زقزوق ومحمد أسد ومحمود مزروعة. وقد استدل العلماء قديما وحديثا لوجوب الأخذ بالسنة بما أُمر المسلمون به من طاعة الرسول في آيات كثيرة في القرآن الكريم.

وفي العصر الحديث كان للمستشرقين دور كبير في إحياء ما اندثر من البدع والآراء المنحرفة من خلال بحوثهم في تراثنا الديني، ومن خلال عملهم مع المستعمرين لبلاد الإسلام من جهة أخرى. ومن ذلك فكرة رفض السنة والاكتفاء بالقرآن وحده، التي يرمى من ورائها إلى رفض القرآن، لأنهم يعلمون أن تعطيل السنة يعني عدم إمكانية العمل بالقرآن، واختلاف المسلمين في تفسير القرآن، وظهور فرق وطوائف لا حصر لها نتيجة ذلك الاختلاف.

ففي شبه القارة الهندية استطاع الاستعمار الإنجليزي أن يجند مجموعة تنادي بإنكار الجهاد، ليخفف عنه ما يعانيه من بأس المجاهدين هناك، وكان من هؤلاء "جراغ علي" و "ميرزا غلام أحمد القادياني"، وما لبث أن تطور الأمر إلى إنكار السنة على يد "سيد أحمد خان" و "عبد الله جكرالوي" و "أحمد الدين الآمرتسري" وغيرهم، ثم جاء "غلام أحمد برويز" فأسس جمعية باسم أهل القرآن، وأصدر كتبا ومجلة شهرية تدعم فكره، وممن أحسن الرد خادم حسين بخش في كتابه "القرآنيون وشبهاتهم حول السنَّة". وفي بلاد العرب تولى هذه المهمة بعض من ينعت نفسه بأنه من اتباع المدرسة الاصلاحية التي نشأت في مصر على يد محمد عبده وشيخه الأفغاني، وهذا ما يؤكده أحمد صبحي منصور الزعيم الروحي للقرآنيين في مصر والعالم العربي. وكانت "مجلة المنار" التي يرأس تحريرها مؤسسها محمد رشيد رضا أحد أقطاب تلك المدرسة، قد نشرت سلسلة من المقالات بعنوان: الإسلام هو

---

[٤] مفتاح الجنة في الاحتجاج بالسنة ٣٦/١.

القرآن وحده بقلم الدكتور توفيق صدقي، وقد أيَّد الشيخ رشيد رضا هذه المقالات، الذي كان يقسم السُّنَّة إلى دين عام - السُّنَّة العملية - يجب قبوله، ودين خاص - وهو ماعدا ذلك - لسنا ملزمين بالأخذ به[٥]. وكذلك فإن أبا ريّة المنتمي إليهم وضع هذه الأفكار المنكرة للسنة في كتاب "أضواء على السُّنَّة المحمدية". ورد عليه السباعي في كتابه: "السنة ومكانتها". ثم إن تأثر الدارسين العرب في الجامعات الأوربية بآراء أساتذتهم من المستشرقين، كان له أثره السلبي في زرع شبهات حول السنة لديهم، كان نتيجتها الطعن بالسنة وردها، ومنهم طه حسين، وأحمد أمين وغيرهما. وقد أسس بعد ذلك المصري أحمد صبحي منصور المركز العالمي للقرآن الكريم "IQC" في ولاية فيرجينيا وموقعه على الإنترنت (أهل القرآن). ومن خلاله بدأ ينشر مقالاته وكتبه وأبحاثه للتعريف بمنهجه والدعوة إليه[٦]. ومما نُشر مؤخرا على هذا الموقع مقال بعنوان: (تغيير جذري: تركيا تعيد النظر في معاني الاحاديث)، وفيه أن تركيا تستعد لنشر وثيقة تمثل تغييرا جذريا في الطريقة التي تفسر بها تعاليم الاسلام... وقد كلفت وزارة الشؤون الدينة ذات النفوذ الواسع في البلاد مجموعة من علماء الدين في جامعة أنقرة للقيام بمراجعة شاملة للاحاديث النبوية. ويدعي المصدر أن السلطات التركية تقول بأن عددا لا يستهان به من الأحاديث منسوبة إلى النبي محمد زورا، وحتى بعض التي صدرته عنه فعلا بحاجة إلى إعادة تفسير، حسب رأيها.

وقد بدأ التمحيص الدقيق في الأحاديث في كلية الشريعة بجامعة أنقرة (على زعمهم)، ويقول أحد مستشاري المشروع فيلكس كرونر أن العديد من الأحاديث تم اصطناعه بعد وفاة النبي ﷺ محمد بقرون لخدمة مصالح معينة.

ويضيف كرونر أن الدين الاسلامي استغلته ثقافات متتالية، محافظة في أغلبها، لدعم عدة أشكال من السيطرة داخل المجتمع. ويقول الخبير البريطاني فادي حكورة من مؤسسة تشاتام هاوس بلندن: إن ما تقوم به تركيا الآن هو تحويل الإسلام من دين يجب طاعة تعاليمه إلى دين مصمم لتلبية حاجيات الناس في ديموقراطية علمانية. ويقارن الخبير المشروع التركي بإصلاح الكنيسة: "ليس نفس الشيء بالطبع، لكن إن دققت في ما تفعله تركيا، فهو أيضا عبارة عن تغيير في جذور الدين". ويجدر بالذكر أن كلية الشريعة في أنقرة تقوم بهذا التجديد مستخدمة تقنيات النقد والفلسفة الغربية في التعامل مع الحديث. إن هذه القضية هي نموذج له نظائره الكثيرة في كليات الإلهيات في الجامعات التركية، وهذه الظاهرة يقابلها بالطبع في تركيا تيارات متوازنة تفرق بين الثوابت والمتغيرات في الشريعة الإسلامية، ويتضح فيها المنهج الوسطي للإسلام الأصيل.

---

[٥] انظر: دراسات في الحديث النبوي للأعظمي ١ / ٢٦ –٢٧. ونقل الأعظمي عن الأستاذ السباعي أن رشيد رضا قد رجع عن ذلك في آخر حياته.

[٦] من أبرز المتحمسين والمدافعين عن هذا التوجه في الوطن العربي: عماد الدين الدباغ من السودان، أحمد صبحي منصور من مصر، مصطفى كمال المهدوي من ليبيا، عبد الله السعيد المشتهري من مصر، علي حسن اوريث من ليبيا، محمد صالح بنور من الجزائر.

٣ـ مصطلح الجماعة وأبعاده الحقيقية:

أشير إلى الجماعة في السنة بأنها الفرقة الناجية في حديث الافتراق، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "افترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة، فواحدة في الجنة، وسبعون في النار، وافترقت النصارى على اثنين وسبعين فرقة فإحدى وسبعين فرقة في النار، وواحدة في الجنة، والذي نفس محمد - صلى الله عليه وسلم - بيده لتفترقن أمتي على ثلاث وسبعين فرقة واحدة في الجنة، وثنتان وسبعون في النار. قيل يا رسول الله من هم؟ قال: الجماعة". وفي رواية: ما أنا عليه وأصحابي٧.

ثم إن علماء المسلمين اجتهدوا في تحديد تلك الجماعة. فلما سئل الإمام أحمد بن حنبل عن الجماعة قال: "إن لم يكونوا أصحاب الحديث فلا أدري من هم"٨.

ويحدد الشيخ سلامة القضاعي معيار الدخول في تلك الجماعة متمثلا في أصول الدين المجمع عليها بين علماء المسلمين، فيقول: "الافتراق الذي أنذر الرسول أمته إنما هو في أصول الدين وفروعه المتواترة، وفيما أجمع عليه منها؛ ولذلك ألف كثير من الجهابذة مؤلفات خاصة فيما تقدمهم من الإجماعات ليحذر خلافها مَن بعدهم ممن يتأهل للاجتهاد. وهذه الأصول أصول الدين وما ألحق بها هي بحمد الله محل وفاق على ممر القرون، والخلاف فيها هو معيار الابتداع، والقائل به يعرف عند أهل السنة بالمبتدع. فأحكم علم ذلك يرتفع عنك كثير من تشغيب المبتدعة ومن سايرهم من الجهلة"٩. وهذا معيار مهم جدا، وهو حجة على من يخالف الأثرية والأشاعرة والماتريدية لانتماء علماء الأمة إليهم، وتصريحهم بالعقائد الموافقة لهم.

ويعدد عبد القاهر بن طاهر التميمي البغدادي أصناف أهل السنة والجماعة الثمانية ويجعل منهم أئمة الفقه من فريقي الرأي والحديث ويصفهم بأنهم الذين اعتقدوا في أُصول الدين مذاهب الصفاتية في الله وفي صفاته الأزلية وتبرَّؤُا من القدر والاعتزال، وقالوا بدوام نعيم الجنة على أهلها، ودوام عذاب النار على الكفرة، وقالوا بإمامة أبي بكر وعمر وعثمان وعلي، وأحسنوا الثناء على السلف الصالح من الأمة، ورأوا وجوب الجمعة خلف الأئمة الذين تبرؤا من أهل الأهواء الضالة، ورأَوْا وجوب استنباط أحكام الشريعة من القرآن والسنة ومن إجماع الصحابة، ويدخل في هذه الجماعة أصحاب مالك والشافعي وأبي حنيفة وأحمد بن حنبل رضي الله عنهم.

وينقل العلامة السفاريني عن بعض العلماء أن الفرقة الناجية هم أهل الحديث. يعني الأثرية والأشعرية والماتريدية١٠.

ويقول الدكتور نور الدين عتر حفظه الله، وهو من كبار محدثي العصر: إن إضافة مصطلح الجماعة إلى السنة كان من أجل التعبير عن أن من يمثل الإسلام

---

٧ أحمد في المسند ٣٣٢/٢، والترمذي في كتاب الإيمان، باب ما جاء في افتراق هذه الأمة ٢٩٧/٧، وأبو داود في كتاب السنة، باب شرح السنة ٤/٥ ، وصححه الحاكم ٦/١ ، ووافقه الذهبي، وقال العراقي في المغني عن حمل الأسفار ٢٢٥/٣: أسانيده جياد، وصححه السخاوي في المقاصد الحسنه ١٥٨. وقد عدَّه السيوطي والكتاني من المتواتر.

٨ شرف أصحاب الحديث للخطيب البغدادي.

٩ البراهين الساطعة ١٦٧.

١٠ لوامع الأنوار ٧٦/١.

حقيقة هم الذين استمر فيهم نهج جماعة الصحابة والتابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، فهم الجادة العريضة التي انحرفت عنها طوائف من أهل البدع في كل زمان ومكان.

٤ـ الإمام أحمد بن حنبل وعقيدة أهل السنة والجماعة:

ارتبط مصطلحا أهل السنة والجماعة وأهل الحديث بفتنة الإمام أحمد في مسألة خلق القرآن وثباته مع أصحابه فيها. وأحمد بن حنبل هو إمام معتمد عند كل أهل السنة والجماعة باختلاف مشاربهم سواءٌ كانوا حنابلة أثرية أو مالكية وشافعية أشاعرة أو حنفية ماتردية. لكن اختلف المنتسبون لأهل السنة حول تفسير توجهات ابن حنبل في العقيدة، واختلفوا حول صحة بعض الأقوال المنسوبة إليه، فبينما يرى كثير من جماعة السلفية أن الإمام أحمد بن حنبل هو المؤسس الحقيقي لمنهجهم، وأن الإمام أحمد على خلاف حاد مع متكلمي أهل الحديث، وأن السلفية هم الاستمرار التاريخي لمنهج الإمام، ويقدمون أنفسهم على أنهم امتداد لمدرسة الحديث في المشرق الإسلامي؛ ويرون أن معاقلهم تلك كانت خصوصاً في شبه الجزيرة العربية، وكذلك مدارس الحنابلة بالشام، والسلفية في العراق ومصر والسودان، وأهل الحديث في شبه القارة الهندية[١١].

في المقابل يرى بقية أهل السنة والجماعة وأغلبهم من الأشاعرة والماتردية وجانب من الحنابلة بعدم صحة كثير من النقول التي رُويت عن الإمام أحمد بن حنبل، والتي اعتمد عليها السلفيون في تحديد معالم منهجهم، كما يرى هؤلاء أن نشأة أهل الحديث مرتبطة بنشأة أهل السنة والجماعة، وأن المصطلحان استخدما للدلالة على العقيدة الجامعة للأثرية والأشاعرة والماتردية، وأنهم فقط تميزوا عن بعض أهل الحديث من الأثرية باستعمالهم علم الكلام، ويرون أن الخلاف الذي حدث بين ابن حنبل وبعض المتكلمين من أهل السنة، هو خلاف لا ينقص من صحة معتقد أحدهما.

٥ـ هل يوجد عقيدة مستقلة لأصحاب الحديث:

في حين يرى السلفيون أن أهل الحديث أصحاب منهج مستقل في العقيدة، فإن الأشاعرة والماتردية منهم من يرى أن أصحاب الحديث هم أحد مكونات أهل السنة، تميزوا بالاهتمام بالحديث النبوي دون أن يكون لهم موقف مستقل في العقيدة. يقول البيهقي رحمه الله، وهو من أئمة الحديث: "إن الصحابة ومن تبعهم بإحسان من علماء الأمّة وفقهائها ومحدثيها على عقيدة الأشعري، بل الأشعري على عقيدتهم، قام وناضل عنها، وحمى حوزتها من أن تنالها أيدي المبطلين وتحريف الغالين".

---

[١١] انظر سياسات السلفية الإحيائية الجديدة لحسن أبوهنية. والسلفية: هم جماعة ظهروا في القرن السابع الهجري وفقا لما يرونه من صفات لله في القرآن والسنة. وقد اتبعوا ابن تيمية وابن قيم الجوزية، وفي العصر الحديث ظهروا في شبه الجزيرة العربية على يد محمد بن عبد الوهاب بالتزامن مع تكوين الدولة السعودية الأولى (تاريخ المذاهب الإسلامية أبو زهرة ١٨١-١٨٥).

ويرفض الكوثري، وهو من أئمة العلم المعاصرين، أن يكون لأهل الحديث عقيدة جامعة، وهو أمر صحيح لا شك فيه يؤيده واقع النظر في تراجمهم. يقول رحمه الله: "وبين أهل الحديث من القدرية والخوارج وصنوف الشيعة والمجسمة من كرامية وبربهارية وسالمية رجالٌ لا يحصيهم العد كما لا يخفى على من له إلمام بعلم الرجال، فليس لهم عقيدة جامعة. فيكون عزو عقيدة إلى جماعة الحديث مُخادعة وتمويهاً على العقول، فإن كان يريدُ تخصيص هذا الاسم بصنوف المجسمة فهذه التسمية إنما تكون تسمية ما أنزل الله بها من سلطان، إنما التعويل على أهل الحديث في روايتهم الحديث فقط فيما لا يُتهمون به، وأما علم أصول الدين، فله أئمة معروفون وبراهينٌ مدوّنةٌ في كتبهم، وأهل الحديث المبرّءون من البدع يسيرون سيرهم"١٢. وقال بهذا كثير من علماء الحنابلة مثل: القاضي أبو يعلى الفرا وابن صوفان القدومي الحنبلي١٣. وعلى ذلك فإن أئمةَ أهل الحديث كأحمد بن حنبل هم على عقيدة أهل السنة والجماعة دون أن يكون لهم منهج مستقل في العقيدة، ومن الأئمة القائلين بهذا الرأي: ابن عساكر والبيهقي وتاج الدين السبكي وعبد القاهر البغدادي١٤. قال ابن عساكر: ولم تزل الحنابلة ببغداد في قديم الدهر على ممر الأوقات تعتضد بالأشعرية على أصحاب البدع لأنهم المتكلمون من أهل الإثبات فمن تكلم منهم في الرد على مبتدع فبلسان الأشعرية يتكلم ومن حقق منهم في الأصول في مسألة فمنهم يتعلم فلم يزالوا كذلك حتى حدث الاختلاف في زمن أبي نصر القشيري١٥. وكان ذلك في القرن الخامس للهجرة.

ويتحدث ابن تيمية عن نفسه قائلا: ولما أظهرت كلام الأشعرى ورآه الحنبلية قالوا هذا خير من كلام الشيخ الموفق وفرح المسلمون باتفاق الكلمة، وأظهرت ما ذكره ابن عساكر في مناقبه أنه لم تزل الحنابلة والأشاعرة متفقين إلى زمن القشيري فإنه لما جرت تلك الفتنة ببغداد تفرقت الكلمة١٦.

وبعض الأشاعرة والماتريدية يعدون أصحاب الحديث طائفة من ثلاث طوائف، اختلفت بينها من جهة العقيدة في الطريقة وبعض الفروع، دون الحقيقة والأصول. فهم يعتمدون مثلا التفويض المطلق في آيات الصفات، بينما يحقق الأشاعرة والماتريدية التوازن بين التأويل والتفويض، ويقر كلا المذهبين. وعلى كل حال فإن كلا منهما يرفض التأويل المطلق الذي يستعمله المعتزلة، كغطاء في تقديم العقل على النقل. قال أبو عبد الله السبكي في كتابه "تحرير المطالب لما تضمنته عقيدة ابن الحاجب": "واعلم أنّ أهل السنة والجماعة كلّهم قد اتفقوا على مُعتقَدٍ واحد فيما يَجبُ ويجوزُ ويستحيلُ، وإن اختلفوا في الطرق والمبادئ الموصلة إلى ذلك، أو

---

١٢ " ص ٣٩ من كتاب من كتاب "بحوث في علم الكلام"، تأليف: سعيد عبد اللطيف فودة، دار الرازي، الطبعة الأولى، عمّان بالأردن، ٢٠٠٤ م. وانظر "تكملة الرد على نونية ابن القيم ٢٤.

١٣ " طبقات الحنابلة ٤٧٩، وانظر المنهج الأحمد لابن صوفان نقلاً عن درر الألفاظ العوالي في الرد على الموجان والحوالي لغيث بن عبد الله الغالبي.

١٤ انظر دراسة فلسفية لآراء الفرق الإسلامية في أصول الدين، ج٢: الأشاعرة، تأليف أحمد محمود صبحي.

١٥ تبيين كذب المفتري ١٦٣.

١٦ مجموع الفتاوى ٣/٢٢٩.

في لِمِّيَّة المسالك. وبالجملة، فهم بالاستقراء ثلاث طوائف: الأولى: أهل الحديث: ومعتمَد مبادئهم الأدلةُ السمعيّة، أعني الكتاب والسنّة والإجماع. الثانية: أهل النّظر العقلي والصناعة الفكرية: وهم الأشعرية والحنفية، وشيخ الأشعرية أبو الحسن الأشعري، وشيخ الحنفية أبو منصور الماتريدي. وهم متفقون في المبادئ العقلية في كل مَطلبٍ يتوقَّفُ السمعُ عليه، وفي المبادئ السمعية فيما يدرك العقلُ جوازَه فقط، والعقليةِ والسمعيةِ في غيرهما. واتفقوا في جميع المطالب الاعتقادية... الثالثة: أهل الوجدان والكشف: وهم الصوفية. ومبادئهم مبادئُ أهل النظر والحديث في البداية، والكشف والإلهام في النهاية" وقد وافقه على ذلك الإمام المحدث مرتضى الزبيدي رحمه الله١٧.وبهذا قال أيضا بعض الحنابلة مثل الإمام السفاريني الحنبلي، دون أن يخرج الأشاعرة والماتريدية من أهل السنة، كما يفعل كثير من جهلة الحنابلة أو من يسمون أنفسهم بالسلفية اليوم. يقول رحمه الله: "أهل السنة والجماعة ثلاث فرق: الأثرية: وإمامهم أحمد بن حنبل، والأشعرية: وإمامهم أبو الحسن الأشعري. والماتريدية: وإمامهم أبو منصور الماتريدي"١٨. ومن هؤلاء الإمام عبد الباقي المواهبي الحنبلي الذي القول إلى جميع كتب الحنابلة، فقال: "طوائف أهل السنة ثلاثة: أشاعرة وحنابلة وماتريدية بدليل عطف العلماء الحنابلة على الأشاعرة في كثير من الكتب الكلامية وجميع كتب الحنابلة"١٩. ومن الحنابلة القائلين بهذا الإمام مرعي بن يوسف الكرمي الذي ميز بين أهل الحديث والأشاعرة من خلال الموقف من الصفات المتشابهة فقال: وفرقة أخرى أثبتت الصفات المعنوية من نحو السمع والبصر والعلم والقدرة والكلام وهو مذهب جمهور أهل السنة والجماعة ومنهم أتباع أئمة المذاهب الأربعة ، ثم اختلفوا فيما ورد به السمع من لفظ العين واليد والوجه والنفس والروح : ففرقة أولتها على ما يليق بجلال الله تعالى وهم جمهور المتكلمين من الخلف فعدلوا بها عن الظاهر إلى ما يحتمله التأويل من المجاز والاتساع خوف توهم التشبيه والتمثيل. وفرقة أثبتت ما أثبته الله ورسوله منها وأجروها على ظواهرها ونفوا الكيفية والتشبيه عنها قائلين إن إثبات البارئ سبحانه إنما هو إثبات وجود بما ذكرنا لا إثبات كيفية فكذلك إثبات صفاته إنما هي إثبات وجود لا إثبات تحديد وتكييف. فإذا قلنا يد ووجه وسمع وبصر فإنما هي صفات أثبتها الله لنفسه فلا نقول إن معنى اليد القوة والنعمة ولا معنى السمع والبصر العلم ولا نقول إنها

---

١٧ انظر "إتحاف السادة المتقين" ج٢ ص٩. والصوفية نسبة للتصوف الذي بنى منهجه على طريق الوصول إلى العلم بالله الذي يقوم على التحقق بمقام الإحسان، وذلك من طريق الاجتهاد في العبادات واجتناب المنهيات، وتربية النفس وتطهير القلب من الأخلاق المذموم، وتحليته بالأخلاق المحمودة. والصوفية يتبعون من حيث العقيدة المدارس المعروفة عند أهل السنة، ويتبعون أحد المذاهب الفقهية السنيّة الأربعة، ويأخذون بالكشف والإلهام الذين لا يعارضان القرآن والسنة.وقد تنوعت الطرق التي يسلكها المربون فنشأ عنها ما عرف بـ "الطرق الصوفية".

١٨ لوامع الأنوار البهية ٧٣/١.

١٩ العين والأثر ٥٢.

جوارح[٢٠]. وقد عبر بعضهم عن العلاقة بينهم بشكل مختلف فاعتبر أن الأشاعرة والماتريدية هم قسم من أهل الحديث اعتنى بالعلوم الكلامية، مثل: عبد الله بن خلف الدحيان، ووهبي الغاوجي[٢١]، وفوزي العنجري وحمد السنان. جاء في كتاب "أهل السنة الأشاعرة": "أن الثلاث فرق هي فرقة واحدة لأنهم كلهم أهل الحديث، فإن الأشاعرة والماتريدية لم يردوا الأحاديث ولا أهملوها، فإما فوضوها وإما أولوها، وكل منهم أهل حديث، وحينئذ فالثلاث فرقة واحدة، لاقتفائهم الأخبار وانتحالهم الآثار، بخلاف باقي الفرق فإنهم حكّموا العقول وخالفوا المنقول فهم أهل بدعة وضلالة ومخالفة وجهالة والله تعالى أعلم"[٢٢]. وقديمًا أشار إلى هذا الأمر ابن حزم وابن تيمية حينما عدّا أبا الحسن الأشعري من متكلمي أهل الحديث. يقول عنه ابن تيمية: " كان هو وأمثاله يعدون من متكلمة أهل الحديث، وكانوا هم خير هذه الطوائف، وأقربها إلى الكتاب والسنة، ولكن خبرته بالحديث والسنة كانت مجملة، وخبرته بالكلام كانت مفصلة"[٢٣]. وكذلك يعدّ من أبرز أئمة أهل الحديث المتكلمين البخاري وابن الجوزي[٢٤].

٦ـ واقع انتماء المحدثين من خلال عقيدتهم:

لعل ما يحسم الجدال نهائيا حول هوية أصحاب الحديث هو النظر في واقع انتماء جمهور محدثي الأمة عبر قرون الإسلام من حيث الاتجاه العقدي، وذلك من خلال تتبع ترجماتهم من جهة، وتتبع ما ورد عنهم من نقول تتصل بالعقيدة من جهة أخرى. وهم من أمثال الحاكم والبيهقي والخطيب البغدادي وابن عساكر والخطابي وأبو نعيم الأصبهاني والقاضي عياض وابن الصلاح والمنذري والنووي والعز بن عبد السلام والهيثمي والمزي والقرطبي وابن حجر وابن المنير وابن بطال وشراح الصحيحين، وشراح السنن، والعراقي وابنه وابن جماعة والعيني والعلائي وابن فورك وابن الملقن وابن دقيق العيد وابن الزملكاني والزيلعي والسيوطي وابن علان والسخاوي والمناوي وعلي القاري والبيقوني واللكنوي والزبيدي والنابلسي وبدر الدين الحسني وعبد الله سراج الدين وعبد الفتاح أبو غدة ونور الدين عتر وغيرهم كثير...

وإضافة إلى ذلك فقد وردت نقول عن كثير منهم يصرحون بأن المراد بأهل السنة والجماعة من انتسب إلى الأشاعرة والماتريدية. ومن ذلك قول الحافظ ابن حجر الهيتمي أن: "المراد بالسنة ما عليه إماما أهل السنة والجماعة الشيخ أبو الحسن الأشعري وأبو منصور الماتريدي"، ومثل هذا التعبير نجده عند كثير من متقدميهم ومتأخريهم[٢٥].

---

[٢٠] أقاويل الثقات ١٣٣.

[٢١] مسائل في علم التوحيد ٢٤، ٢٥.

[٢٢] حمد السنان وفوزي العنجري، دار الضياء.

[٢٣] درء تعارض العقل والنقل ٤٦٢/٧ ، وانظر بحوث في علم الكلام، سعيد عبد اللطيف فودة، ٣٥.

[٢٤] انظر نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام، علي سامي النشار، ١/ ٢٧٥، ٢٩١.

[٢٥] **الزواجر عن اقتراف الكبائر** ٨٢.

٧ـ خاتمة:

إن ما تقدم يضعنا أمام حقيقة معاصرة تمدها جذور ضاربة في عمق التاريخ، مفادها أن أصحاب الحديث قديما وحديثا هم أهل السنة والجماعة، سواءٌ قولنا: إن أهل السنة والجماعة ينتسبون إليهم أو إنهم ينتسبون إلى أهل السنة والجماعة، فالنتيجة واحدة تتمثل في مسيرة الصحابة والتابعين ومن تبعهم في منهجهم إلى يومنا هذا، وفي إجماع علماء الأمة المعتد بهم عبر تاريخ الإسلام على المذاهب الفقهية الأربعة والعقائد الأثرية والأشعرية والماتريدية التي هي استمرار لذلك المنهج، وأن أهل الحديث هم جزء مهم جدا من علماء الأمة الذين لم يخرجوا عن هذا الإجماع. بينما خرج الشيعة نهائيا عن فقه الأمة وعقائدها ورفضوا منهج أهل الحديث، وانقسم من سموا أنفسهم بالسلفية فريقين: بعضهم غالى فكفر أهل السنة من الأشاعرة والماتريدية، وهذه المجازفة منهم أخرجت ٩٠% من المسلمين عن الإسلام، وهذا ما فرق المسلمين وشتت شملهم، فكان هؤلاء الغلاة يقولون بما هو مخالف لمنهج المحدثين قديما وحديثا، مع أنهم يدّعون متابعة أهل الحديث، وفريق آخر اتخذ موقفا معتدلا يعترف بأن الأشاعرة والماتريدية هم الكيان الأساسي العظيم للأمة الذي ينتمي إليه الجمهور الساحق من العلماء، ومع هذا الموقف الموضوعي فهم ما يزالون يخالفونهم ببعض الفروع ويعتقدون خطأهم.

وإننا اليوم بأمس الحاجة أن نتبنى الترادف بين مصطلحي أهل السنة والجماعة وأهل الحديث، على أن أهل الحديث هم الأشاعرة والماتريدية والأثرية عقيدة، وهذا ما صرح به علماء الأمة قديما وحديثا، وهذا يمكّننا من أن نُدخل في مصطلح أهل السنة والجماعة الوسطيين من الذين ينسبون أنفسهم إلى أهل الحديث اليوم دون أن ينتسبوا إلى المذاهب الأربعة، لكن دون أن يكفروا غيرهم من المسلمين ودون أن يتبنوا العقائد الفاسدة كالتجسيم وغيره.

أخيرا ...لا بد من حركة علمية اجتماعية سياسية تنشر وعي الاستيعاب في جميع أتباع أهل السنة والجماعة وتؤسس لوحدة سلوكية تكون منطلق نهضة وانبعاث حضاري جديد.

دور الإجازات العلمية في بناء هوية الأمة (الإجازة البغدادية أنموذجا)

د. عثمان سعيد العاني

من المعروف إن للمدارس دورا في تثبيت هوية الأمة وصياغة منهاجها في التفكير، وهي معيار تطورها وقدرتها على الاستجابة لأي تحد، فتعيد تشكيل فكر الأمة وهويتها بما يناسب والمرحلة التي تمر بها.

فمنذ انطلاقتها من مسجد النبي صلى الله عليه وسلم، ارتبطت هذه المدارس بالمسجد ودار القضاء ودار الحكم، لتشكل هذه الثلاثية رمز الحضارة الإسلامية..

وإذا أردنا أن نضع معيارا لقياس الحركة العلمية وانتشارها، فيمكننا ذلك من خلال رصد حركة

الإجازات العلمية، وذلك من خلال قراءتها ثم تحليلها وكيفية انتشارها ورصد مقومات تطورها، لنلاحظ مدى تأثير حركة المدارس على تطور الأمة في عصر الاستقرار، وبنائها في فترة الانهيار، وهي بحق استطاعت أن تحقق نقلة نوعية حضارية في فترة توحد الأمة، كما استطاعت أن تجمع شتاتها في فترة الفرقة.

وحينما نقلب صفحات التاريخ قد لا نجد أن العالم الإسلامي توحد بشكل متكامل تحت حكم واحد إلا في فترات محدودة، لكننا حينما ننظر إلى حركة العلوم وانتقالها كانت تخضع لمنظومة معرفية واحدة من حيث إطارها، فهي وأن اختلفت في التفاصيل إلا أنها متحدة في الأهداف تقوم على عنصر التكامل أولا والتواصل ثانيا، ليعطيها حركة تاريخية مؤثرة وواضحة بشكل فاعل قياسا لباقي الحضارات الأخرى...!!

وسأحاول من خلال هذه الدراسة أن انتقل بشكل متدرج بين محاور أربعة هي:

المحور الأول: المحور التاريخي.
المحور الثاني: المحور الوصفي.
المحور الثالث: المحور التحليلي.
المحور الرابع: النتائج والاقتراحات.

ولكي نسلك في بحثنا مسلك الدراسات التحليلية الوصفية، التي تقوم على مقدمات صحيحة تؤدي إلى نتائج مقبولة، وكما يلي: (٢٦)

المدخلات: والمعيار هنا هو انتقاء، ما يناسب الدراسة ومادته هي:

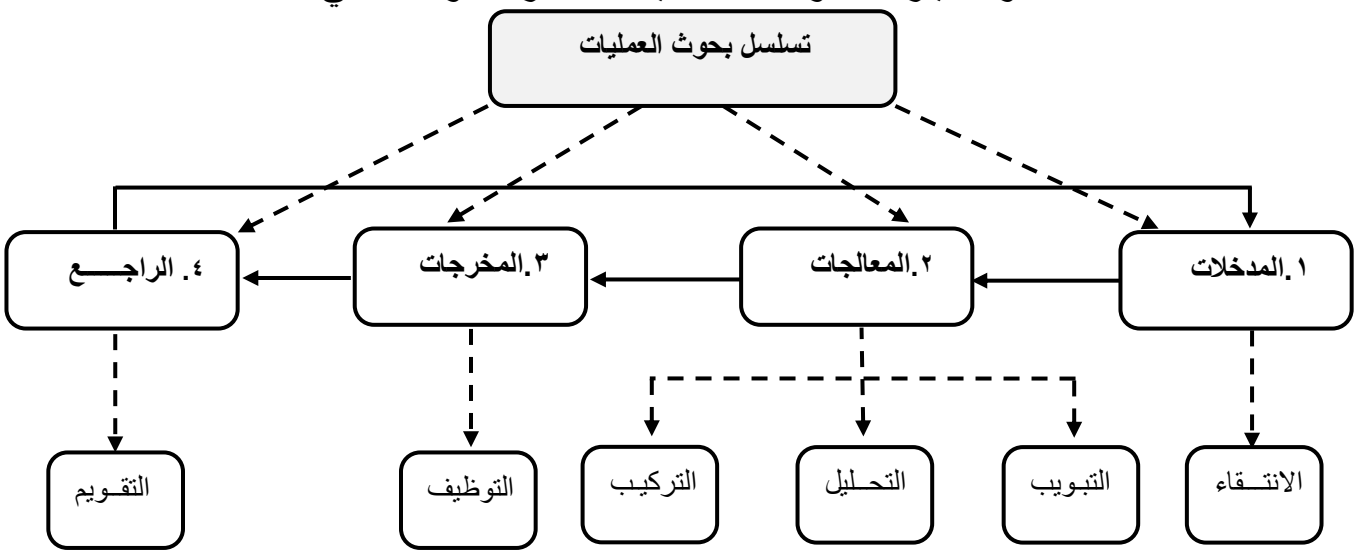

المدارس العلمية، وهي المدارس النظامية وما أعقبها حتى عصرنا.

الإجازات العلمية، وهي الأجازات الأكثر تأثيرا في المنطقة (الكوثري، الدبان....).

المنطقة المراد دراستها (الجيو سياسية)، وتشمل: العراق، تركيا، بلاد الشام، إيران .

المعالجات: ومعيارها هو:

التبويب: المعلومات المراد دراستها.

تحليلها : من خلال معرفة القيم المشتركة.

التركيب : جمع المشترك، وتحديده.

ومن خلال الجمع بشكل متدرج بين المعايير الثالثة وجدنا أن الإجازة هو وحدة القياس التطبيق العملي القابل للاستمرار والتوظيف.

المخرجات: حيث يوظف بشكل تطبيقي عملي من خلال اثر هذه المدارس وانتشار الإجازة بين أقوام مختلفة وبلاد متباينة.

الراجع: من خلال تقويمها والحكم عليها بأنها (مستمرة غير منقطعة وهي متجددة مرتبطة بالتاريخ والواقع معا).

---

(٢٦) ينظر بحثي المنشور في مجلة البحوث الفقهية الإسلامية: İslam Hukuku Araştırmaları Dergi s i , s y. 19, 2012, s. 355-371، بعنوان: الأحناف والمنهجية الفقهية .

إذا نسعى من خلال بحثنا إلى تقويم أثر تلك المدارس من خلال تحليل حركة العلوم وقراءة كيفية انتشار الإجازات العلمية في هذه المنطقة، ودور المدارس في حركة التغير الفاعل في المنطقة.

المحور الأول: المحور التاريخي.

سنحاول فيه أن نطلع على وصف للتاريخي للمدارس بشكل موجز نذكر فيه تطورها وما ألت إليه.

وقبل أن ندخل في تفاصيل البحث المراد عرضه، لا بد من تحديد ملامح الأطر الحاكمة للدراسة لكون الفترة الزمنية المراد النظر فيها هي تمتد من عام ٤٤٧هـ وذلك بدخول السلاجقة بغداد، وتأسيسها بشكلها النظامي على يد نظام الملك ٤٥٩هـ، وانتشارها في دمشق وحلب وخرسان وديار بكر وغيرها ثم الأزهر ومدرسته، والمدارس الشرابيه ٦٢٨هـ وتوسعها ، ثم تتطور شكل المدارس بإضافة القسم العليم والطبي كما حدث في المدرسة المستنصرية ٦٣١هـ ، ثم توسعها ...

إلى نهاية الحرب العالمية الأولى وتقسيم المنطقة بشكلها الحديثة.. ويمكننا أن نحددها من خلال عوامل مهمة جدا هي:

الفترة الزمنية المراد دراستها: وهي تبدأ من الدور السلجوقي في زمن الخلافة العباسية ثم الخلافة العثمانية.. ولذلك هي فترة تاريخية طويل جدا وفيها من الأحداث الشيء الكثير..!!

المنطقة المراد درستها : وهي المنطقة الجغرافية المتمثلة بالعراق وتركيا وسوريا وإيران، كجزء من تاريخ مشترك يبدأ من الخلافة الأموية ثم العباسية ثم الخلافة العثمانية.

مؤشرات التأثير المتبادل بين المنطقتين وأثر احدهما على الأخرى مع وجود تداخل جغرافي، وارتباط ثقافي، بين العراق وتركيا..

كون دمشق مركز الخلافة الأموية وبغداد مركز الخلافة العباسية، واسطنبول مركز السلطنة والخلافة العثمانية، جعل من هذه المدن لهما قيمة اعتبارية وحضارية.

العوامل المؤثرة في صياغة الأحداث: ما هي وما مدى تأثيرها في السابق.؟ وهل يمكن أن يكون لها تأثير في المستقبل..؟

فمن خلال هذه الأطر التي سنسير عليها لنصل إلى إعطاء ملامح تصور لقراءة التاريخ بما يخدم واقعنا المعاصر ويطور مستقبلنا القريب.. نستطيع أن نحدد ما هو الشيء الذي استمر إلى يومنا هذا وله القيمة المؤثرة في واقعنا، والذي لم ينقطع رغم المتغيرات التي مرت بالمنطقة طول هذه الفترة التي تمتد مدة ١٠٠٠سنة، ولا يزال له بعض التأثير المعاصر، ومن الممكن أن يتطور مستقبلا لتحقيق أثر اكبر بما يخدم المنطقة..؟؟

وبعد تفكير طويل وجدت أن الشيء المشترك في كل هذه المتغيرات والتي استمرت ألف سنة هو الفكر والمعرفة، والذي نستطيع أن نعرف قصة حياته من خلال معرفة المدارس والمؤسسات العلمية والحركة العلمية، علما أن المدارس الدينية كانت اغلبها تجمع من حيث الدراسة بين العلوم الشرعية والعلوم الأخرى..!!

فمنذ ظهور السلاجقة في بغداد تطورت منظومة التعليم متمثلة بالمدارس النظامية أيام الوزير نظام الملك وذلك في بغداد والبصرة والموصل وأصفهان وآمل وطبرستان ومرو ونيسابور وهراة وبلخ، ليتولى تطويرها حجة الإسلام الإمام محمد بن محمد الغزالي ت ٥٠٥هـ، فتتطور بشكل واضح المعالم، وتستمر بدون توقف.. فرغم أن بغداد احتلت على يد المغول إلا أن المدرس استمرت وبشكل واضح في مناطق متفرقة من العراق وجنوب تركيا لتعيد إلى بغداد إستقرارها.(٢٧)

المحور الثاني: المحور الوصفي :

سنحاول في هذا المحور أن نطلع على قيمة التقارب والتداخل في الإجازات العلمية بين العراق وتركيا وسوريا وإيران.

والذي أريد أن انوه إليه هنا ملاحظة مهمة: هي أن ارض العراق وبلاد الشام وأرض تركيا كانوا جزاءا من الخلافة العثمانية يجمعهم نظام واحد ، فلا يشعر الموجد في هذه الدولة بوجود حدود معنوية أو سياسية تؤثر في تفكيره، ولذلك كان هناك تداخل وتمازج في الثقافات والعلوم بما يطورها وينمي مداركها.

وإذا نظرنا إلى تسلسل الأسماء الموجودة في سند الإجازات العلمية البغدادية خصوصا والعراقية عموما، مقارنة مع الإجازات العلمية الموجودة في السند العثماني القديم المتمثل بسند مدارسة الفاتح خصوصا وباقي المدن التركية عموما، وجدنا أن هناك تداخل في نهاية السند وبدايته.

ولذلك سنحاول أن نحلل أسانيد الإجازات العلمية بين اسطنبول وبغداد ودمشق، وما حوته من تشابه وتقارب في الشيوخ والطبقات مع تأثير متبادل بينهما.

وسبب الاختيار لهذا الأمر يرجع إلى العوامل التالية:

كون الإجازات العلمية هي المؤشر العملي والمحرك الرئيسي للحركة العلمية والفكرية الممتدة من زمن النبي محمد صلى الله عليه وسلم مرورا بزمن دولة الخلفاء الراشدين ثم زمن الدولة الأموية ثم العباسية وأخيرا العثمانية..

لم ترتبط بالمسار السياسي أو تتأثر به، فهي مستقلة تمثل المؤسسات العلمية، والتي كلما تطورت تطور معها نظام الدولة والحكم، وهي تدخل في تصحيح هذا المسار فهي حاكمة عليه في الغالب وليس هو حاكم عليها.

تعد الإجازة خصوصيا متميزة للحضارة الإسلامية دون سواها من الحضارات، وهي لا تقف عند حد معين أو ارض أو عرق، ولذلك نجد بعضا من مدارس العلم استمرت في ارض خرجت من سلطة الدول الإسلامية التي حكمتها عبر التاريخ فرغم زوال حكم الدولة المسلمة عليها إلا أن عمل هذه المدارس لم يتوقف.

---

(٢٧) الصلابي: د علي محمد، دولة السلاجقة، دار المعرفة ١٤٢٧هـ ٢٠٠٦م، الطبعة الأولى، بيروت لبنان، ص١٤٠ وما بعدها؛ الورد: باقر أمين، حوادث بغداد في ١٢ قرن، الدار العربية، بغداد، ١٩٨٩م، ص٨٧ . ٩٠.

لا تتأثر بالخلافات السياسية والصراعات، بل هي تتجاوز كل الحدود وتحافظ على استقلالها وبعدها عن دائرة تأثير الحاكم بها.

لم تكن بعيدة من حيث التأثير على هيكل الدولة بشكل علمي، فمن المعروف أن المنظومة المعرفية العلمية المتمثلة بحركة المدرس والمنهاج والشيوخ والأساتذة تدخلت في ضبط القضاء وتعين القضاة مع تقنيين لمود الحكم فيه، وهدفها كان تحقيق نظام قضائي عادل، يوزن بين الثنائيات مثل علاقة الفرد بالجماعة، والحريات بالحقوق، والفرد بالدولة، والدين بالدولة، بما يحقق قيمتي العدل والحرية ، بما لا يخالف أصول الاجتهاد المعتبرة.

لم تقف هذا المدارس والإجازات عند حدود العلوم الشرعية بل تعدت إلى باقي العلوم الأخرى، لتشمل علوم الحكمة والمعرفة من منطق ومناظرة وغيرها، كما امتدت لتشمل علوم الهندسة والرياضيات والفلك وغيرها من علوم الأرض لتعطى إجازة فيها أيضا.

التداخل في الإجازات بين العلماء على اختلاف مذاهبهم الفقهية وقومياتهم ومناطقهم، بالإضافة إلى التنوع في الاختصاصات والعلوم.. يعطينا مؤشرا مهما له اعتباره، كون أن الحركة العلمية هي حركة حرة وفاعلة وأن العلم لأجل العلم والمعرفة لأجل المعرفة.. وفي عصرنا الحالي تفتخر الكثير من الجامعات بالانفتاح على جامعات أخرى خارج بلدانها وتعقد اتفاقيات بما يسمى بنظام (التوؤمة) بين الجامعات عبر الحدود من اجل تطوير البحث العلمي متجاوزتا الحدود والنظم السياسية... ونحن نقول ان منهج الإجازات العلمية سبق غيره في تحقيق الانتشار منذ ما يزيد عن إلف سنة مع وجود نظام مدني له يحفظ مساره عن الانحراف.

كان الخلفاء والسلاطين يعالجون الكثير من التحديات الفكرية والسياسية والخارجية عن طريق إنشاء المدارس العلمية وإجازات العلماء، ولذلك كانت عاملا مهما من عوامل استقرار منظومة الدولة.(٢٨)

الدولة ساهمت في إيجاد هذا التشابك بين مقر الخلافة كمركز للدولة، وبين المناطق المترامية للدولة، بما يخدم البلاد ويحقق حدتها.

وعليه سأقتصر في تحليلي للأسانيد على بعض الأمثلة من العلماء البارزين ولهم أثرهم في اسطنبول وبغداد.. وخصوصا زمن الخلافة العثمانية.

ولهذا سأركز في دراسة إسناد الشيخ محمد زاهد الكوثري (١٢٩٦-١٣٧١هـ) وإسناد الشيخ محمد سعيد سيدا الجزري رحمهم الله، ودراسة إسناد الشيخ عبد الكريم الدبان رحمه الله والشيخ عبد العزيز السامرائي، وسند الشيخ محمد أمين عابدين سند الشاميين.

---

(٢٨) ينظر ما كتبه: الشوابكة: د أحمد فهد بركات . حركة الجامعة الإسلامية . مكتبة المنار . عمان . ١٤٠٤هـ= ١٩٨٤م، حيث قد درس كيف استثمر السلطان عبد الحميد الثاني دور العلماء والطرق والمدارس وكان من مؤشرات نجاحه سكة الحجاز الشهيرة .

كما سأذكر على سبيل التوثيق لهذا الأثر على المدارس الشامية وخصوا المتمثلة بدمشق والجامع الأموي .

الملة صالح التلمباري (الموصلي) ثم يتصل بسند الحيدريين، فيتصل به الشيخ محمد سيد الجزري ، وسند العراقيين يتصل به عن طريق مفتي بغداد محمد فيضي الزهاوي ثم يستمر كل السندين إلى صبغة الله الحيدري (١٢٣٢هـ).

عبد الرحمن أفندي الروزبهاني، حيث يلتقي سند الشيخ خليل العمري الاسعردي بسند البغداديين عنده ثم يستمر إلى صبغة الله الحيدري (١٢٣٢هـ).

مولانا خالد البغدادي ١٢٤٢هـ، حيث يجتمع فيها سند الكوثري وسند الجزري، وسند الشامين من جهة محمد أمين عابدين ١٢٥٢هـ بسند البغداديين ثم يستمر حتى يصل الى صبغ الله الحيدري (١٢٣٢هـ).

الحسين نصر الدين الخلخالي ١٠١٤هـ ، حيث يتصل سند العلامة الكوثري بسند البغداديين عنده.

حبيب الله ميرزجان، حيث يلتقي سند الجزري بسند الكوثري، ثم يلتقيان بسند البغداديين.

عبد الرحمن الكزبري ١٢٦٢هـ ، محدث الشام، فيحدث عنها الكوثري بسنده، والبغداديون عن عيسى صفاء الدين البنندننجي ١٢٨٣هـ، وكذلك عن الشيخ عبد الرحمن النقيب عن عبد الغني الغنيمي الميداني الدمشقي (1298 – 1222هـ، ١٨٠٧ - ١٨٨١ م) عنه.

محمود شهاب الدين أبو الثناء الحسيني الآلوسي 1217هـ، حيث يتصل سند العلامة الكوثري بسند البغداديين ، وقد أخذ أبو الثناء الآلوسي عن الشيخ يحي المزوري والشيخ عبد الرحمن الكزبري.

هذا بعضا من أوجه التقارب والتداخل في الطرق العليمة والأسانيد المتصل، وقد استند في هذا التحليل الأولي على مصادر الإجازات المقرة والمعتبرة ليومنا هذا.. (٢٩)

---

(٢٩) ينظر: الإجازات العلمية للشيخ عبد الكريم الدبان، عنه الشيخ احمد الحسن الطه السامرائي أمام الجامع الأعظم وإجازات الشيخ عبد العزيز السامرائي يرويها بسنده الشيخ محمود عبد العزيز العاني المدرس الأول في كلية الإمام الأعظم؛ وينظر: سند الشيخ عبد الكريم المدرس مفتي العراق وشيخ مدرسة جامع الشيخ عبد القادر الكيلاني، وينظر أيضا: ثبت الشيخ محمد زاهد الكوثري: التحرير الوجيز فيما يبتغيه المستجيز، اعتنى به: عبد الفتح أبي غدة، مكتبة المطبوعات الإسلامية، حلب؛ وينظر أيضا: سند الإجازة الشامي للشيخ احمد معاذ الخطيب؛ وينظر: الحافظ: محمد مطيع، فقيه الحنفية محمد أمين عابدين، دار الفكر المعاصر/ بيروت، دار الفكر/ دمشق، الطبعة الأولى ١٤١٤هـ ١٩٩٤م؛ وينظر إجازة الشيخ فخر الدين العرناسي، وإجازة الشيخ فهمي بن حسن أفندي، وحول بيت الحيدري وأهميتهم ينظر: السهروردي: عبد الرحمن حلمي العباسي، تاريخ بيوتات بغداد في القرن الثالث عشر للهجرة، تحقيق وتعليق: عماد عبد السلام رؤوف، مكتبة الجواد، ١٩٩٦م، بغداد، ص١١٢ وما بعدها.

المحور الثالث: المحور التحليلي:

سنحلل في هذا المحور اثر الإجازات العلمية على واقع الأمة من ناحية علمية وفكرية وسياسية، مستخدمين قوانين معتبرة لذلك ووحدات قياس أصيلة في قراءة المنهج من خلال رصد المقدمات والنتائج.

وعند النظر في دور العلماء الذين تأثروا بهذه العلاقة بين بغداد واسطنبول فمن الممكن أن نقدم بعضا من الأمثلة عن دورهم ومواقفهم بشكل سريع وبحسب الأحداث التي مرت:

الشيخ عبد الله السويدي (١١٠٤ـ ١١٧٠هـ).

وهو من العلماء البارزين في تاريخ العرق، له مكانته العلمية والسياسية، وله دوره في حفظ بغداد من إحتلالها، حيث قام بالصلح بين نادر شاه وبين السلطان العثماني محمود بن مصطفى الثاني (توفي ١١٦٨هـ ١٧٥٤م)، وخصوص بعد أن سافر السويدي إلى النجف للتباحث ومنع الفتنة وحقن الدماء، وقد وفق في ما قام به، ليؤسس لخطوة الجمع بين الدول بين الدولة الصفوية والخلافة العثمانية، وقد تأثر به نادر شاه فيقر بسلطة الخليفة في اسطنبول. (٣٠)

عبد الغني جميل زادة (١١٩٤ـ ١٢٧٩هـ).

العالم الجليل مفتي بغداد وشيخ الأحناف فيها، وهو له مكانته العلمية بين علماء بغداد وعلماء الشام، اخذ الإجازة الشامية من الشيخ عبد الرحمن الكزبري، فرجع الى بغداد ووقف ضد واليها علي رضا اللاز الذي افسد فيها، لتقع حرب بينه وبين الوالي الذي ظلم أهل بغداد وذلك سنة (١٢٤٩هـ ١٨٣٢م).. فيعيد الاستقرار إلى بغداد وتستقر الحكم فيها.(٣١)

ضياء الدين خالد بن احمد النقشبندي (ولد ١١٩٠ هـ ، سنة ١٧٧٦ م توفي ١٢٤٢هـ/١٨٢٧م).

هو كبير علماء النقشبندية وناشر العلم الشرعي في بغداد درس في مدراس ومساجد بغداد ودمشق شهرته بلغت الأفاق، وإجازته من أعلى الأسانيد في العلوم،

---

(٣٠) ينظر: الوردي: د علي، لمحات اجتماعية من تاريخ العراق، الطبعة الثانية، ١٤٣٠هـ٢٠٠٩م، دار ومكتبة دجلة والفرات، الجزء١، ص١٠٩ و١٢١ و١٣٤ و١٤٧، الالوسي: محمود شكري، المسك الأذفر، مطبعة الأديب، ١٣٤٨هـ ١٩٣٠م، ص٦٠. ٦٤؛ ينظر: السهروردي: عبد الرحمن حلمي العباسي، تاريخ بيوتات بغداد في القرن الثالث عشر للهجرة، ص٨٤ والهامش الموجود؛ وينظر: السويدي: عبد الله بن الحسين السويدي العباسي، مؤتمر النجف، اعتنى به: محب الدين الخطيب، مطبعة البصري/ بغداد.

(٣١) ينظر: الوردي: د علي، لمحات اجتماعية من تاريخ العراق، الطبعة الثانية، ١٤٣٠هـ٢٠٠٩م، دار ومكتبة دجلة والفرات، الجزء١، ص ، الآلوسي: محمود شكري، المسك الأذفر، مطبعة الأديب، ١٣٤٨هـ ١٩٣٠م، ص١٢٦.١٦٩؛ وينظر: الورد: باقر أمين، حوادث بغداد في ١٢ قرن، ص٢٣٩ و٢٤١ و٢٤٦.

هو جسر العلوم بين بغداد وإسطنبول وبلاد الشام وبلاد الهند.. واليه ترجع اجزات عدد من العلماء في هذه البلاد وهي لم تنقطع إلى يومنا هذا.. (٣٢)

أحمد فائز بن محمود البرزنجي (١٢٥٨هـ ١٨٤٢م – ١٣٣٨هـ ١٩١٨م)

وهو من أهل بيت وعلم وتاريخ، كانت في بيتهم مشيخية الطريقة القادرية، وقد جمع بين العلوم النقلية والعقيلة، تولى قضاء السليمانية ثم اربيل ثم الكوت (واسط) ثم في مدينة الناصرية ثم في مدينة كربلاء ثم في ولاية درسيم (سيواس، ارزنجان) ثم في مدينة اورفة ثم في ولاية حلب ثم في ولاية الموصل ، ثم اختير عضوا في مجلس المعارف في اسطنبول، ودفن في مقبرة السلطان محمد الفاتح.

له مؤلفات اشهرها كتاب (كنز اللسن المكنوز فيه ستة ألسن واثنا عشر فنا) حيث جمع اثنا عشر علما مع ست لغات هي العربية والتركية والفارسية والكردية والفرنسية والروسية كتبت بالحرف العربي...!! بشكل جدول يقرأ طولا وعرضا فإذا قرأ من النهاية تحول إلى شعر فريد فيه تاريخ ولادة السلطان عبد الحميد الثاني. (٣٣)

إبراهيم الحيدري (١٢٨٢ـ ١٣٤٩ هـ).

عين بوظيفة شيخ الإسلام في وزارة توفيق باشا مرتين و مرة واحدة في وزارة رضا باشا و مرة أخرى في وزارة صالح باشا و هو شيخ الإسلام السادس و العشرون بعد المائة في الدولة العثمانية ، وقد أسس دار الحكمة لتظم فيها شيخ الإسلام مصطفى صبري وبديع الزمان ومحمد زاهد الكوثري و الشاعر محمد عاكف أرصوي، و في سنة ١٩٢٣ عاد إلى بغداد و ذلك بعد ان انسلخت ولاية الموصل عن تركيا و أصبحت جزءا من العراق، انتخب عضوا في المجلس التأسيسي كما تقلد منصب وزارة الأوقاف في وزارة ياسين الهاشمي الاولى سنة ١٩٢٤ م.(٣٤)

محمد سعيد النقشبندي (١٢٧٧ـ١٣٣٩هـ).

كان يعد من أركان الحركة العلمية وبوابة اسطنبول إلى بغداد، وفي سنة ١٣١٢هـ سافر الى تركيا حيث دعاه السلطان عبد الحميد الثاني هناك فلما وصل أكرمه وأجله وأصدر له ارادة سلطانية ببناء (المدرسة العلمية الدينية في سامراء) حيث عين مدرسا في سامراء وبنى المدرسة العلمية سنة ١٣١٦هـ وقد جعلت

---

(٣٢) ينظر: الدروبي: عبد الغني، البغداديون أخبارهم وجالسهم، المجلس رقم١٣٣ ؛ السامرائي: يونس الشيخ إبراهيم السامرائي، تاريخ مساجد بغداد، ص٢٦٤؛ وينظر: الورد: باقر أمين، حوادث بغداد في ١٢ قرن، ص٢٣٧؛ رؤوف: د عماد عبد السلام، صفاء الدين البندنيجي حياته وآثاره، ص١٧ ما بعدها ؛ وينظر: الحافظ: محمد مطيع، فقيه الحنفية محمد أمين عابدين، ص١٠ و١٨ وما بعدها.

(٣٣) البرزنجي: السيد أحمد فائز، كنز اللسن المكنوز فيه ستة ألسن واثنا عشر فنا، حققه وعلق عليه: الشيخ محمد الخال، أعاد طبعه عبد الخالد صبار، ٢٠١١ على نسخة المجمع العلمي العراقي ببغداد.

(٣٤) السامرائي: يونس الشيخ إبراهيم السامرائي علماء بغداد في القرن الرابع عشر، ص ١٦.١٤؛ وينظر: الورد: باقر أمين، حوادث بغداد في ١٢ قرن، ص٢٣٩، وينظر: القوسي: الدكتور مفرح بن سلمان، الشيخ مصطفى صبري وموقفه من الفكر الوافد،الطبعة ٢، ١٤٢٤هـ ٢٠٠٣م، الرياض، ص٧٢.

ملاصقة للجامع الكبير، نقل بعدها للتدريس في جامع الأمام الأعظم ببغداد ثم عين شيخا ومرشدا في التكية الخالدية سنة ١٣٣٦هـ.

وله نشاطه السياسي فقد أسس وترأس حزب الشورى (المشورة) الإسلامي بعد عزل السلطان عبد الحميد بأربعة أشهر، ويظم الفريق كاظم باشا والفريق محمد فاضل باشا الدغستاني، والشيخ عبد الرحمن النقيب.. وغيرهم، وهو يهدف إلى أعادة الشريعة الإسلامية والوقوف بوجه الانقلاب الاتحادي وإعادة السلطان عبد الحميد الثاني، بعدها أسس حزب العهد للوقوف بوجه التحديات التي تعصف بالبلاد وذلك سنة ١٩١٤م، وقف ضد الاحتلال البريطاني لبغداد وفرض عليه الإقامة في بيته لكونه احد ابرز رجال ثورة العشرين ضد المحتل. (٣٥)

كما ساهم في ترؤس حزب العهد والذي هو امتداد لحزب العهد الذي نشأ في سوريا، علما أن أفكار حزب العهد كانت تدعو للامركزية داخل الدولة. (٣٦)

عبد الوهاب النائب (١٢٦٩-١٣٤٥هـ).

تخرج من على يديه الأفاضل من العلماء فما جاء بعده عالم تسلم المهام وتقلد مقاليد العلوم في العراق وخصوصا في مدينة بغداد إلا وكان من منهله العذب قد ارتشف ومن بحر علومه قد غرف، كان عضو مجلس الولاية على عهد الوالي التركي زكي باشا سنة ١٩١٢، ونائبا القضاء الشرعي ورئيس مجلس التميز الشرعي، كما كان عضوا بمجلس المعارف ورئيس مجلس الأوقاف العلمي ورئيسا لمحكمة الصلح، وعهد إليه بتدريس تفسير القرآن الكريم في (جامعة ال البيت) سنة ١٩٢٤م، كما حرص على استمرار المؤسسات المدنية والقضائية، وقد سعى إلى إقرار مجلة الحكام العدلية وتطويرها وعدم نفوذ المحتل البريطاني إليها. (٣٧)

أحمد منير المدرس (ولد ١٣١٣هـ ١٨٩٢م توفي ١٩٦٩م).

يعد من أكبر علماء القانون والشريعة في تاريخ بغداد الحديث، رئيس تحرير جريدة الحقوق سنة ١٩٢٣م..وعين مديرا لأوقاف بغداد عام ١٩٢٩.. فمفتشا للأوقاف ثم حاكما في محكمة بداءة بغداد سنة ١٩٣٢..فمفتشا عدليا ١٩٣٤ وأستاذا في كلية الحقوق ١٩٣٥ وعميدا لكلية الحقوق ١٩٤٠م.(٣٨)

---

(٣٥) آل السهروردي: محمد صالح، لب الألباب، ص٢٧٠ و ٢٨٠؛ السامرائي: يونس الشيخ إبراهيم السامرائي علماء بغداد في القرن الرابع عشر، ص٢١٠ وما بعدها؛ العطية: د غسان، العراق نشأة الدولة، قدم له: حسين جميل، ترجمة: عطا عبد الوهاب، دار اللام، ١٩٨٨م، لندن، ص٨١.

(٣٦) العمر: الدكتور. فاروق، الأحزاب السياسية في العراق ١٩٢١م – ١٩٣٢م، مركز دراسات الخليج العربي، ١٩٧٨م مطبعة الإرشاد، بغداد، ص ٤٣ وما بعدها.

(٣٧) آل السهروردي: محمد صالح، لب الألباب، ص١٠.٥٠، السامرائي: يونس الشيخ إبراهيم السامرائي علماء بغداد في القرن الرابع عشر، ص٤٦٨ وما بعدها.

(٣٨) آل السهروردي: محمد صالح، لب الألباب، ص ٣٩٨. ٤٠٠، السامرائي: يونس الشيخ إبراهيم السامرائي علماء بغداد في القرن الرابع عشر، ص٦٧٩. ٦٨١.

تميز بشرحه لمجلة الأحكام العدلية الشهيرة بطريقة مقربا ألفاظها ومبسطا عبارتها، وليترك اثره في القانون المدني العراق من خلال ما ألفه من كتب وخرجه من طلاب.

أمجد محمد سعيد الزهاوي (ولد ١٣٠٠ هـ/ ١٨٨٣م وتوفي ١٣٨٧ هـ / ١٩٦٧م).

سافر إلى عاصمة الخلافة اسطنبول مع جمع من الطلبة للدراسة في مدرسة النواب (كلية القضاة) وتقدم على أقرانه فيكون ترتيبه الأول عليهم ليتخرج منها بدرجة (علي الأعلى)، ولما رفع اسمه إلى السلطان عبد الحميد الثاني قلده وسام الشرف مع ميدالية، وعرض عليه أن يعينه عضوا في محكمة إستانبول، متجاوزا بذلك شرط مدة خدمة ست سنوات الخاصة بتعين من هم في هذه المحكمة، لكن الشيخ آثر الرجوع إلى بغداد.

رجع إلى بغداد عام ١٣٢٨هـ وكان له موقف الرفض لما وقع من تغيير في الخلافة العثمانية بعد أحداث ١٩٠٨هـ وعزل السلطان عبد الحميد الثاني، فعين في حينها "مفتيا" في منطقة الإحساء لينقل بعدها إلى بغداد فعين عضوا في محكمة استئناف بغداد وذلك سنة ١٣٢٨هـ الموافق ١٩٠٩م، ثم نقل إلى البصرة في جنوب العراق، لينقل بعدها إلى محكمة بداءة الموصل سنة ١٩١٨م ليبقى بها حتى نهاية الحرب العالمية الأولى، بعدها ينقل إلى محكمة بداءة بعقوبة بتاريخ ٤/١/ ١٩١٩م ليستقيل منها بتاريخ ١١/١٥/ ١٩١٩م أثر تعيين إدارة الاحتلال البريطاني انكليزيا لرئاسة المحكمة، ليعود إلى بغداد بعد أن كان له صحبة مع علماء اسطنبول حيث بقية له علاقة به ومن بينهم الشيخ سعيد النورسي بديع الزمان.

يعد امتدادا للمدارس العلمية القديمة لكون والده وجده توليا منصب الإفتاء في بغداد، وهو اعتبر من قبل علماء العراق مفتي العراق، لما يحمله من أرث علمي وعائلي واعتباري مهم يمتد إلى العهد العثماني عموما والسلطان عبد الحميد خصوصا. (٣٩)

الملا عبد الهادي أفخم زاده (١٣٢٨ – ١٤١٤هـ) علامة أهل السنة في إيران ، وهو من تلامذة الشيخ محمد القزلجي البغدادي (١٣١٣هـ ١٨٩٥م – ١٣٧٩هـ ١٩٥٩م) تلميذ الشيخ محمد سعيد النقشبندي.

---

(٣٩)حول شخصية النقيب ينظر: آل السهروردي: محمد صالح، لب الألباب، مطبعة المعارف، ١٣٥١هـ١٩٣٣م، بغداد، ص١٣٣.١٥٩ ؛ السامرائي: يونس الشيخ إبراهيم السامرائي، تاريخ علماء بغداد في القرن الربع عشر الهجري، مطبعة وزارة الأوقاف والشؤون الدينية، العراق،١٤٠٢هـ ١٩٨٢م، ص٣٥٧ و ٣٥٩؛ وينظر: المشايخي: كاظم أحمد ناصر، أمجد الزهاوي عالم العالم الإسلامي، الطبعة ٢، ١٤٢٤هـ ٢٠٠٣م، أنوار دجلة، بغداد/ العراق، ص٣٨.

أثرها في العصر الحديث:

الأثر السياسي:

تأسيس حزب الشورى (المشورة) الإسلامي بعد عزل السلطان عبد الحميد بأربعة أشهر، ويظم الفريق كاظم باشا والفريق محمد فاضل باشا الدغستاني (أبرز قيادات معركة كوت الأمارة)، والشيخ عبد الرحمن النقيب (أول رئيس وزراء للدولة العراقية) والذي يعدُّ شيخا من رموز الخلافة العثمانية ونقيبا للأشراف في بغداد ومن المؤيدين للسلطان عبد الحميد الثاني وحركة الجامعة الإسلامية(٤٠)، والشيخ محمد سعيد النقشبندي (ابرز قيادات الثورة العراقية الكبرى).. وغيرهم، وهو يهدف إلى أعادة الشريعة الإسلامية والوقوف بوجه الانقلاب الاتحادي وإعادة السلطان عبد الحميد الثاني.

دورهم في محاولة تنصيب الأمير عابد أفندي ابن السلطان عبد الحميد ملكا على عرش العراق، حيث قال الشيخ عبد الرحمن النقيب أن يفضل أن يرى ملك من آل عثمان على العراق. (٤١)

رفضهم تقسيم كيان العراق وسعيهم إلى جمع المسلمين محمود الحفيد البرزنجي، ودورهم في حرب الاستقلال.(٤٢)

مثلا في العراق فقد كان أول رئيس للوزراء عبد الرحمن النقيب الكيلاني، والذي يعدُّ شيخا من رموز الخلافة العثمانية ونقيبا للأشراف في بغداد ومن المؤيدين للسلطان عبد الحميد الثاني وحركة الجامعة الإسلامية. (٤٣)

---

(٤٠) حول شخصية النقيب ينظر: آل السهروردي: محمد صالح، لب الألباب، مطبعة المعارف، ١٣٥١هـ١٩٣٣م، بغداد، ص١٣٣.١٥٩ ؛ السامرائي: يونس الشيخ إبراهيم السامرائي، تاريخ علماء بغداد في القرن الربع عشر الهجري، مطبعة وزارة الأوقاف والشؤون الدينية، العراق،١٤٠٢هـ ١٩٨٢م، ص٣٥٧.٣٥٩ .

(٤١) حول شخصية هذا الموضع ينظر: الشلاه: د. حسن هادي، طالب باشا النقيب البصري ودوره في تاريخ العراق السياسي الحديث، الطبعة ١، ١٤٢٢هـ ٢٠٠٢م، الدار العربية للموسوعات، بيروت/ لبنان، ص٤٣٥، حيث نقلة عن المس بيل، وهي حينما تتكلم عن العثمانيين تقول الترك..!! وهي تهدف إلى معنى أن الحكومة البريطانية هي مع العرب ضد الترك ..!!

(٤٢)حمدي: الدكتور: وليد، الكرد وكردستان في الوثائق البريطانية دراسة تاريخية وثائقية، مطبعة سجل العرب، ١٩٩٢م، ص٧١؛ وقد حدثني الشيخ إبراهيم منير المدرس – رئيس مجلسة إدارة جمعية التربية وأحد أركان العلم في بغداد – بعد زيارة الشيخ الصوف إلى الشيخ محمود الحفيد ذكر كيف حاول البريطانيون أن يستميلوه إلى صفهم فرفض أي فعل يضعف الإسلام وأهله.

(٤٣) حول شخصية النقيب ينظر: آل السهروردي: محمد صالح، لب الألباب، مطبعة المعارف، ١٣٥١هـ١٩٣٣م، بغداد، ص١٣٣.١٥٩ ؛ السامرائي: يونس الشيخ إبراهيم السامرائي، تاريخ علماء بغداد في القرن الربع عشر الهجري، مطبعة وزارة الأوقاف والشؤون الدينية، العراق،١٤٠٢هـ ١٩٨٢م، ص٣٥٧.٣٥٩ .

دورها العسكري:

دورهم في الحرب العالمية الأولى، فمعركة كوت الإمارة انتصر بها القوات المقاتلة بسبب دور علماء العراق، وهزيمة الجيش المملكة المتحدة البريطانية فقد استسلمت القوات البريطانية بقيادة طاونزند إلى القوات العثمانية في ٢٦/ نيسان/١٩١٦ دون قيد أو شرط، وخسائر الجيش البريطاني زادت عن ٣٠،٠٠٠ ثلاثين ألف قتيلا، و ٧،٠٠٠ سبعة الآف أسيرا. (٤٤)

دورها في حرب التحرير وكذلك من حيث الروح العسكرية الموجودة في الجيش العراقي منذُ تأسيسه اختارت أن تستمر بداخلها تحمل العرف العسكري العثماني، وذلك يرجع إلى أن من أسس الجيش كانوا من الضباط العراقيين الذين هم في الجيش العثماني في الأصل، ومن أبرزهم القائد مصطفى راغب باشا الذي قاتل في حرب التحرير في الأرضي التركية.(٤٥)

فتواهم في قضايا الأمة مثل قضية فلسطين وقضية الجزائر وقضية احتلال العراق، فقد أفتى الشيخ عبد الكريم المدرس، والشيخ عبد الكريم زيدان مع مجموعة من أهل العلم بوجوب مقاومة المحتلين.

أثرها في القضاء:

وحتى بعد زوال الحكم العثماني عن العراق واحتلاله من قبل الانكليز، نجد أن مفهوم الدولة ومؤسساتها بقي يحمل داخله العرف العثماني في نظامه المدني والعسكري،(٤٦) فمثلا القضاء كان لمجلة الأحكام العدلية أثرها في صياغة القانون المدني.

حاولت إدارة الاحتلال البريطاني بعد الحرب العالمية الأولى تعطيل الفقه القضائي الإسلامي بمحاولة تعطيل العمل بمجلة الأحكام العدلية، دفع ذلك فقهاء بغداد بعد عام ١٩٢١م إلى تقنين قوانين مجلة الأحكام العدلية بثوب جديد أساس لقيام فقه إسلامي قضائي يتناسب مع احتياج الأمة، مما دفع الدكتور عبد الرزاق السنهوري إلى وصف القانون العراقي: بأنه (أول قانون مدني يتلاقى فيه الفقه الإسلامي

---

(٤٤) ويلسون: أرنلد تي، بلاد ما بين النهرين بين ولائين : خواطر شخصية و تاريخية، نقله إلى العربية و قدم له و علق عليه فؤاد جميل ؛ تقديم و مراجعة علاء نورس.

(٤٥) ينظر حول تأسيس الجيش العراقي: تاريخ القوات العراقية المسلحة، نخبة من المؤلفين، وزارة الدفاع العراقية، الدار العربية، ١٩٨٦م، بغداد، ج١. كان اللواء مصطفى راغب باشا برتبة رئيس (نقيب) في الحرب العالمية الأولى، ثم اشترك في حرب التحرير وعاد على العراق عام ١٩٢٤م، ثم رئيسا للمجلس العراقي العسكري، ثم أشترك في حرب فلسطين عام ١٩٤٨م حيث رفض العمل بالهدنة وكان دوره مميز..!! ينظر: بصري: مير، أعلام التركمان، الطبعة الأولى، ١٩٩٧م، دار الوراق للنشر، لندن، ص٧٨.

(٤٦) فوستر: هنري، نشأة العراق الحديث، ترجمة وتعليق: سليم طه التكريتي، الطبعة١، ١٩٨٨م، دار الفجر للنشر، بغداد، ينظر الجزء الأول وكيفية اختيار ملك العراق.

والقوانين الغربية الحديثة جنبا إلى جنب بقدر متساو في الكم والكيف) وهو يرى أن هذه التجربة (من أخطر التجارب في تاريخ التقنين الحديث) ثم قال: (مكن لعوامل المقارنة والتقريب من أن تنتج أثرها، ومهد الطريق للمرحلة الثالثة والأخيرة في نهضة الفقه الإسلامي، يوم يصبح الفقه مصدرا لأحكام حديثة تُجاري مدنية العصر وتُساير أحدث القوانين وأكثرها تقدما ورقيا..)(٤٧)

أثرها الاجتماعي:

انتشارها في مناطق صراع سياسي، فنمط الإجازات العلمية وعرف المدارس العلمية منتشر في منطق العرب والكورد والترك والفرس.. يجمعها عقيدة واحدة ومنهج علمية واحد منظبط..

ساهمت المدارس التقليدية في معالجة العديد من الأزمات الاجتماعية، فدور المدرس والطالب يكمن في خدمة المحيط الذي يعيش فيها، مما دفع الدولة العثمانية في أواخر عهدها وخصوصا في زمن السلطان عبد الحميد الثاني إلى إقرار وضيفة الواعظ السيار الذي يذهب إلى البادية وينقل بين أهلها. (٤٨)

المحور الرابع: النتائج والمقترحات:

حيث سنستخلص النتائج، من خلال قراءة التاريخ وأثره المستمر ليومنا هذا، ثم نعرج إلى توصيات مستقبلية عملية تنفع الأمة وتخرجنا من دائرة التنظير إلى واقعية التأثير..

تبين لنا من خلال البحث والاستقصاء، ورغم تجربتنا المحدودة وجدت أن من الصعوبة أن تجمع كتاب ومصادر تخص الجانب التاريخي للمنطقة بشكل يوجد ربط وتشبيك بين هذه البلاد فلا تزال تلك المصادر هي قليلة قياسا للفترة المراد دراستها، علما أن ما هو موجود من وثائق ومعلومات تعد مصادر مهم لدراسة العلاقة القائمة بين اسطنبول لكونها عاصمة وبين بغداد ودمشق وغيرهما لكونها ولايات تتبع مركز الخلافة.. ولا يزال ما ترجم من الوثائق قياسا لما هو موجود يعد قيلا جدا جد، ولذلك لا بد من إيجاد طريقة للترجمة والأرشفة يسهل الوصل إيها من قبل الباحثين العرب.

إذا أردنا أن نعيد التواصل بين شعوب المنطقة، فعلينا أن نبحث عن نقاط الاتفاق ومواطن الاختلاف، محللين إياها أولا، ثم واضعين برامج عمليه تحقق ردم هذه الفجوة، فنحن بأمس الحجة إلى تكرار لقاءات استشارية، تؤسس للتصورات فكرية من اجل الوصول إلى خطوات عميلة، كما أن هناك حاجة إلى تأسيس قسم في مراكز الدراسات للوصل إلى قراءة التاريخ بصورة موضوعية ومنهجية.

---

(٤٧) ينظر: بحث السنهوري عن (القانون المدني العربي) نقله: حسين: الدكتور: محمد محمد، حصوننا مهددة من داخلها،ط٦، ١٤٠١هـ ١٩٨١م، دار الرسالة، بيروت / لبنان، ص ١١٢ ، وينظر: القاضي: منير؛ شرح المجلة، وزارة المعارف العراقية، مطبعة العاني، ط١ ١٩٤٩م.

(٤٨) ينظر: السامرائي: تاريخ علماء بغداد في القرن الربع عشر الهجري؛ وينظر: المشايخي: أمجد الزهاوي عالم العالم الإسلامي، ص٥٧ .

تحقيق قيمة التاريخ المشترك الذي يجمع شعوب المنطقة على اختلاف أجناسها، منذ زمن الخلافة الراشدة ثم الأموية ثم العباسية ثم العثمانية، فالكل يشترك في موروث هذه الحضارة الإسلامية، فهي حضارة متسلسلة و متراكمة ومتكاملة.

هناك عقد تحتاج أن يتجاوزها بعض الباحثين المعاصرين تمثلت بكون ما نتصوره الآن عن المنطقة من حدود (سيكس بيكو) هو الذي يجب أن نحاكم التاريخ عليه، وهذا أمر يحتاج إلى وقفة..!! فكلا أرض العراق وأرض تركيا وأرض سوريا كانوا ضمن الحكم العثماني وأنا كعرقي لا يمكن أن أتجاوز التاريخ من كون العراق هو جزء من الدولة العثمانية القديمة، كما لا يمكن للتركي والسوري أن يتجوزوا ذلك..!! ولذلك فمهما حاول بعض الباحثين إلغاء طبيعة هذا التاريخ فأن سرعان ما تتبدد الأوهام لأي باحث بسيط ليجد أن البشر كلهم يعجزون عن تغير حقائق التاريخ مهما ملكوا من قوة ..!! وعليه فيجب أن تقرأ هذه الفترة بشكل متجرد وبعيد عن العاطفة، لنجد أن فيها زوايا ايجابية عدة يجب أن تظهر على السطح فنؤسس لمنظومة تواصل حضاري ينطلق من تاريخنا المشترك بما يحقق قياما ومصالح مستقبلية.

من الثابت تاريخيا... أن العراق رفض الوقوف ضد الخلافة العثمانية رغم مؤاخذاتهم على فساد حكومة الإتحاد والترقي.. وآثروا الوقف بوجه بريطانيا، فقد وقف علماء بغداد وعلماء النجف وعلماء الموصل بوجه الاحتلال ووجوب مقاتلة المحتل البريطاني، وإقرارهم أنهم جزء من الخلافة العثمانية التي يجب الدفاع عن أراضيها، يعطينا تصورا مهما عن وجهة نظر الطبقة المثقفة في العراق تجاه الخلافة العثمانية ومكانتها..!! وعليه يجب على الأجيال أن يظهر لهم مثل هذه القيم المهمة، والتي تعد محطات تواصل حضاري نحن بأمس الحاجة لها في أيامنا هذه..!!

هناك مساحة مشتركة ولا زالت مستمرة وهي تمثل مسار العلوم والمعرفة، وهي ميزة مهمة ينتبه لها، وهي مجال الإجازات العلمية والتي تمتد بصيغها من عهد النبي محمد صلى الله عليه وسلم ... إلى يومنا هذا، مع وجود منهجية توثيق تعتبر علمية في أغلبها، وهي تعطينا صورة التبادل الثقافي بين أفراد العالم الإسلامي متجاوزة الحدود والثقافات والأعراق..

هناك مشكلة تواجه كل باحث عربي الثقافة يريد أن يبحث في تاريخ بلاده والبلدان الأخرى التي كانت تحت حكم الدولة العثمانية .. انه حينما يقصد الأرشيف العثماني في تركيا لكونها وريثة الدولة العثمانية، يجد صعوبة في الوصول إلى المصادر والوثائق، ولذلك أصبح من الضروري تعريب ما هو موجود من فهارس تخص الوثائق والمكتبة في تركيا.

من المعلوم أن المدارس العلمية تنشر في مناطق الآن تعد من الأكثر عنفا، حيث تمتد بين العرب والأكراد والأتراك في العراق وتركيا وسوريا وإيران وأذربيجان وهي تمتد أيضا لتدخل في شبه القارة الهندية مرورا بمنطقة زاهدان في إيران، فلا بد من العمل على تطوير منظومتها المعرفية بما يحقق التبادل العلمي والتواصل الفكري.

ضعف التبادل الثقافي يضعف التصور السياسي والاجتماعي وغيره، مما يضعف صحة القرار الصادر من المؤسسات التي تملك القرار، فتقع في دائرة الأخطاء وتفوت الفرص على نفسها وشعوبها..!!

في مثل هذه المرحلة التي نمر بها هناك ثغرات خطيرة تحتاج إلى معالجة من قبل قوة تريد هيكلة المدارس من جديد وتحتاج إلى تكرر فعل الوزير نظام الملك وتعيد التاريخ، فيؤسس لتنظيم فكرة الكتلة التي ترسم مسار التجديد في الأمة، فنحن اليوم بحاجة إلى مدارس نظامية جديدة تخص الفكر والمعرفة، تزرع الكلمة لتثمر معرفة، أصيلة في جذورها غنية بثمارها عالية في أغصانها، تأتي أكلها كل حين بأمر ربها، تسقى من عين لا تنضب عين القرآن الكريم والسنة النبوية.

وختاما:

مما لا شك فيه أن للمدارس العليمة الشرعية أثرها في تشكيل الأطر الحاكمة لهوية الأمة عبر التاريخ، لكنها تعاني منذ أكثر من مائة سنة من إهمال مقصود وغير مقصود..!! مما جعل القسم منها ينزوي عن دوره، والقسم الأخر يعيش قي دائرة مغلق تجعل صاحبها يجنح بخياله فيعيش عالما غير العالم المحيط به، فيخرج عن المألوف في تصور؛ لذلك نحن بأمس الحاجة إلى دراسات ميدانية حقيقية تظهر لنا الصور الموجود والاحتياج الذي يدب أن يقدم لتطوير هذه المدارس وإعادة دمجها بشكل حقيقي في المجتمع، فأغلب الثورات التي وقعت ضد الاحتلال إنطلقت من تلك المدارس، لكنها عجزت عن قيادة الدولة وصياغة هويتها، لتقادم جعلها تتوقف عن دورها.

هوية المجتمع أو ثقافة المجتمع أو الرأي العام.. تحققه الحركة الفكرية التي تنطلق فيها بشكل منهجي وتراكمي وموضوعي مرتبط بحاجة الناس أولا والدولة أخيرا.. وكل من ينطلق من أسس ضعيفة في تصور فكر الهوية للمجتمع سيؤسس للنظرية مهزوزة ولدت مشوهة..!! لذلك نحن بحاجة إلى استقراء التجارب الناجحة والتي ظهرت في تاريخينا نستخرج قوانين الحياة الخاصة بنا، فقد فشلت كل الأفكار الوافدة في تحقيق ما نهدف إليه لأنها مناهج دخيلة وليست أصيلة، كما إن مورثنا الفكري الحضاري غني يحتاج إلى استنباط جوانب الحكمة فيه، وتحويلها إلى وقاع ملموس.

أكدت الحركة العلمية عبر التاريخ على هوية الأمة ضمن أطر تتمثل بالوحي من جهة، مع وجود دائرة الاجتهاد من جهة أخرى، بمعنى أن فهم الواقع أولا ثم النظر في أدوات الاجتهاد ثانيا لبناء تصور عملي تتحقق به المصلحة بما لا يخالف النص.

هوي الأمة تتضح من خلال فهم دائرة كبرى اسمها الإنسان، ثم فهم دائرة أخرى في داخلها نسميها دائرة الأيمان بمفهوم القران الكريم والسنة النبوية، فمن يخرج عن دائرة الإيمان والتي هي في الوسط، هو يبقى في الدائرة الكبرى وهي دائرة الإنسانية، ولذلك أهل السنة هم ليسوا طائفة بل هم الدين أي هم الإسلام ينظرون إلى كلا الدائرتين معا، فلا مجال لمن يتطرف بنظرته..!! ومن يفكر بدائرة

الإيمان فقط هو يقع في التطرف، ولذلك لم نجد حادثة ظلم مقصود ومنظم وقع من قبل الدولة المسلمة المتمسكة بروح التشريع الإسلامي على الآخرين، على العكس من الآخرين فأنهم ألغو دائرة الإنسان بسبب تطرف في اعتقادهم، ويقف على الطرف الآخر من هذا الصنف مَن ألغا دائرة الأيمان وأتخذ نفي الإيمان مسلكا، ليفقد ذاته وصفاته فيتجرد عن كل ضابط يضبط سلوكه ومنهجه.

ودور من يمثل الحضارة الإسلامية وأهلها أن يندفع باتجاه أظهر جوانب الإسلام، وما قدمه من معرفة، ولا يتحقق ذلك إلا بتطوير منظومة المدارس أولا وإعادة دورها الريادي... والله أعلم.

هذا جهد مقلٍ والله ولي التوفيق..

المؤسسة الوطنية للدراسات والبحوث
National Association for Studies and Research

والعلامة الشهير، عيسى صفاء الدين البندنيجي، وهو من علماء كثيرين أولهم[1]، وأشهدهم علماً وعملاً، وأطولهم باعاً، وأقصرهم أملاً، الشيخ المعمر حسين

العلامة البندنيجي ت ١٢٨٣ هـ
اخذ عن والده موسى ت ١٢٣٨ هـ، وعن أمين الفتوى ببغداد دويش بن عرب ، وعن حسين كمال الدين الكركوكي عن أسماعيل الطبقجلي رواية الجامع الصحيح للإمام البخاري، وعن المؤرخ عثمان بن سند البصري ت ١٢٤٣ هـ.. وغيرهم

يحي بن خالد المزوري ت١٢٥٥ هـ

صبغة الله الحيدري ١٢٣٣ هـ
ضياء الدين خالد بن احمد النقشبندي العثماني ١٢٤٣ هـ

داود باشا ت ١٢٤٧ هـ أصبح شيخا للحرم النبوي الشريف ودفن في المدينة المنورة

الكزبري محدث الشام ت ١٢٦٢ هـ
كما يروي البندنيجي عن خالد النقشبندي عن مصطفى الكردي عن الكزبري بسنده الى الامام البخاري

مصطفى الرحمتي ت ١٢٠٥ هـ

عبد الغني النابلسي ت ١١٤٣ هـ
نجم الدين الغزي ١٠٦١ هـ
بدر الدين الغزي ٩٨٤ هـ
إبن حجر الهيتمي ٩٨٤ هـ

١- والثاني: الشيخ يحيى المزوري، عن جرجيس الأربلي، عن صبغة الله الحيدري. والثالث: مولانا الشيخ خالد النقشبندي، عن عبد الرحيم الأربلي، عن جرجيس الأربلي المذكور، والرابع والخامس: عبد الرحمن الروزبهاني وداود باشا والي بغداد سابقاً، كلاهما عن صبغة الله الزياري، عن والده مصطفى الزياري عن صبغة الله الحيدري والسادس: علامة الشام عبد الرحمن الكزبري، عن عبد الرحمن المحض نقيب الأشراف، عن صبغة الله الحيدري. وأخذ الكزبري كذلك عن مصطفى الدمشقي المعروف بالرحمتي، ومحمد تقي الدين الحنبلي الشاذلي، كلاهما عن عبد الغني النابلسي، عن النجم الغزي، عن البدر الغزي، عن ابن حجر الهيتمي بسنده المشهور .

وقفة: توفي السيد الشيخ عبد الرحمن النقيب الكيلاني نقيب أشارف بغداد ثالث يوم من عيد الأضحى سنة ١٣٤٥هـ، وهو قد اخذ العلم من الشيخ عيسى صفاء الدين البندنيجي، والشيخ عبد النافع دفتردار حفيد إسحاق أفندي مفتي ادنة سنة ١٢٨٤ هـ، كما اجازه محدث الشام الشيخ عبد الغني الغنيمي الميداني وغيرهم من اهل العلم... إ.هـ

* اخذ الشيخ محمد امين بن عابدين ت ١٢٥٢هـ الإجازة من الشيخ العلامة خالد النقشبندي بعد أن نزل النقشبندي أرض دمشق ودرس بها خلقا هناك ليتصل السند الشامي بالعراقي من هذا الطريق.. والله أعلم إ.هـ

المؤسسة الوطنية للدراسات والبحوث
National Association for Studies and Research

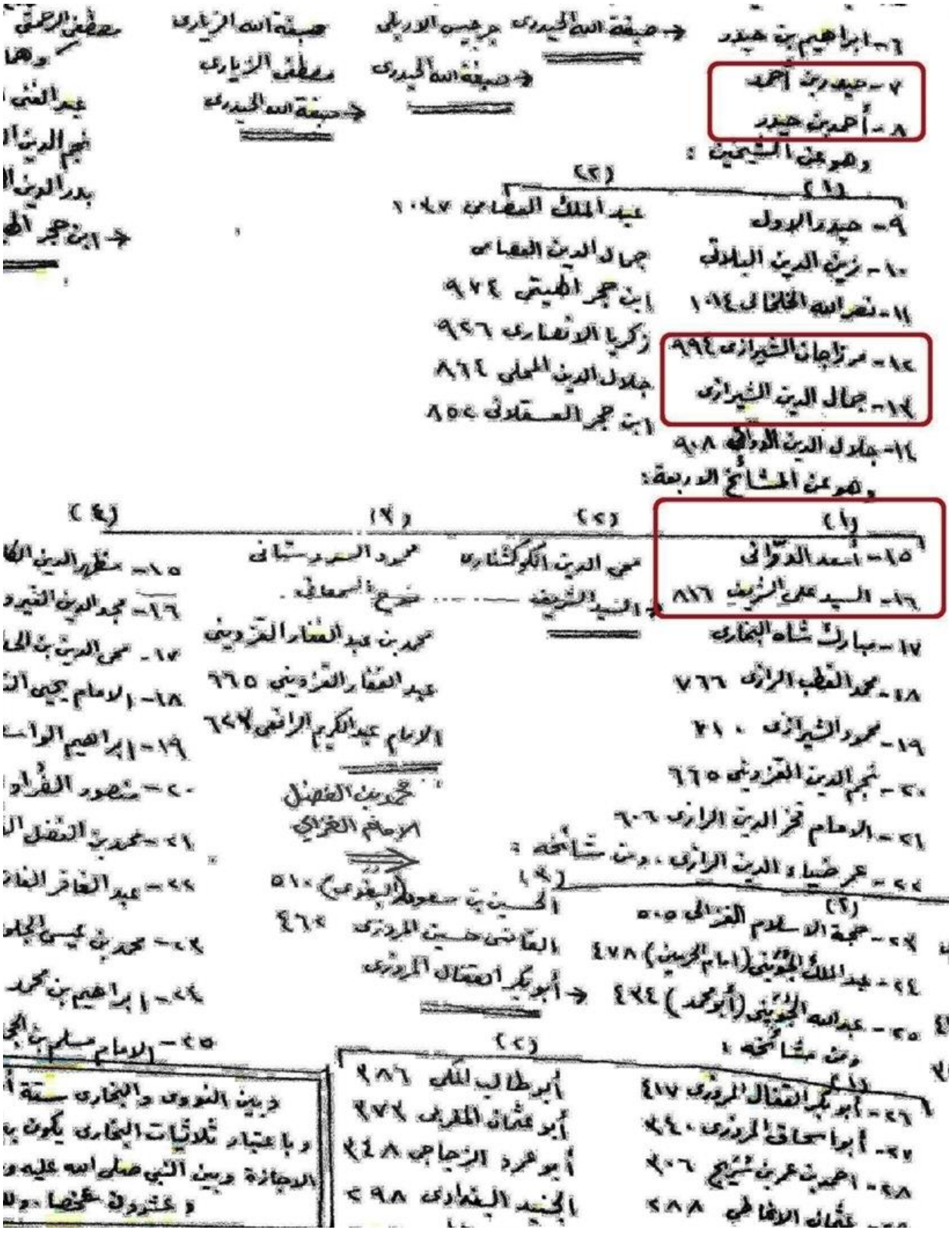

المرجعية الإسلامية مرشّحًا لإدارة الحياة المعاصرة

الدكتور محمود أبو الهدى الحسيني

تمهيد:

مع اختلاط الأصوات الكثيرة التي تنادي بالفئويات الضيقة، ومع ظهور الإكراه السلوكي في الأقاليم التي تدعي الحريات، وتنادي بالديمقراطيات، تبرز الحاجة إلى أسلوبٍ معاصر مرنٍ في إدارة الحياة يستوعب المتغيرات ويتبنى منهجا إنسانيا لا قهر فيه ولا إكراه .....

وقد رأينا على سبيل المثال لا الحصر جمهورية فرنسا التي ترفع شعار الحرية وهي في الوقت نفسه تُكره المحجبات المسلمات على خلع حجابهن، في سلوكٍ فجٍّ يتنافى مع الحريات... ورأينا سويسرا التي تدعي المثالية السلوكية وهي في نفس الوقت تصوّت في استفتاءاتها على منع بناء المآذن الإسلامية ... وينتشر هنا وهناك العدوان على رموز الأمة الإسلامية فيساء إلى نبي الإسلام ويؤذى المسلمون في مصحفهم المقدس ...

كما أننا ضمن تجارب عالمنا الإسلامي (غير المنضبطة بالمذاهب الأربعة) نرى أيضا تناقضاتٍ لا تعبر عن منهجنا الإسلامي المستوعب، فقد مُنع في بعض عواصمنا بناء المساجد التي يصلي فيها أتباع المذاهب الأربعة، وموورس قتلُ المسلم المسمى عمر وعثمان ...

وهي أيضا تجاربُ توهم الجاهل بأنّ الأسلوب الإسلاميّ ضيقٌ وصدامي ...

ومثلها تلك التجارب التي جعلت المنطلق النظري الإسلامي يعتمدُ الحظر أصلا، بدلا عن منطلقاتنا (في مذاهبنا الأربعة) التي تعتبر الإباحة أصلا ... حتى وصل الأمر بأصحاب تلك التجارب المنغلقة إلى تكفير المسلمين أو وصفهم بالشرك واستحقاق جهنم.

إننا نرى ضمن ثروتنا الإسلامية العلمية المستنبَطة من القرآن العظيم، وسنة الرسول الكريم أننا نملك منهجا إنسانيا واسعا في إدارة الحياة يستوعب المتغيرات ويتبنى أسلوبا لا قهر فيه ولا إكراه ضبط قواعدَه علماؤنا في مذاهبنا الأربعة، ونثروا فيها أمثلة تناسب عصورهم بفرعيات الأحكام، فكانت نموذجا عمليا يُستأنس به كلما أردنا تطبيق تلك القواعد.

ونحن نزعم اليوم أننا قادرون من خلال مذاهبنا الفقهية الأربعة، ومنهجنا العقَدي والخُلُقي، على تكوين مرجعيات اقتصادية واجتماعية وسياسية تنظم حياتنا المعاصرة وتستوعب حريات الآخرين المشتركين معنا في العيش ولوازمه.والذي يبرر زعمنا هو امتلاكنا لمنطلقاتٍ نظرية واسعة الرؤية، مرنة التكيّف مع المتغيرات، قابلة لتلبية التطلعات الإسلامية، والحاجات الإنسانية التي يرنو إليها غير المسلمين.ولعلّي في هذا البحث أثير منطلقاتٍ بحثية، وأنبه إلى بعض مكامن القوة التي تساعد تحول النظرية إلى تطبيق معاصر.

البحث:

أولا- مكامن القوة في مرجعية إدارة الحياة الإسلامية:

أ- ربانية القواعد:

مع كون فقهنا الإسلامي (في مذاهبنا الأربعة) اجتهاديا ومستنبطا، لكنّ أصوله وقواعده ومنطلقاته ربانية نزلت بوحي (كتابا وسنةً) ولا يمكن للقواعد البشرية أن ترقى في اتساع رؤيتها إلى القواعد الربانية (وَاللهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ {٢١٦} البقرة) ... (أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ {١٤} الملك)

ب- استيعاب المنطلقات للمكونات البشرية:

إن المنطلقات الإسلامية الكبرى تستوعب التعددية البشرية بمختلف اتجاهاتها الفكرية والعقَدية، وتعتمد المساواة الإنسانية مبدأً في إدارة الحياة من غير تمييز.

فمن منطلقاتنا على سبيل المثال: (العدل والإحسان وإيتاء ذي القربى) قال تعالى: (إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاء ذِي الْقُرْبَى)}90{ النحل

ومفهوم العدل مفسر بقوله تعالى: (لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ) {٢٥} الحديد

والآية صريحة في توجيه إدارة الحياة إلى العدل بين الناس كلهم، وعدم اقتصارها على المسلمين.

ومفهوم الإحسان لم يقتصر أيضا على المسلمين والمستحقّين بل عمّ كل شخص لا تمتد يده إلى الناس بالإيذاء، مهما كانت ملته، قال تعالى: (لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ) {8} الممتحنة

فأمر ربنا في الآية بالإحسان إلى المخالفين عقيدة، وبإكرامهم رغم تباينهم العقدي والديني والفكري مع المسلمين، طالما أنهم يشتركون معهم في العيش وتبادل المنافع، ولا يُظهرون إيذاء أو عداوة.

وإيتاء ذي القربى لا يقتصرُ – بنظري- على مفهوم القرابة النسبية.

فقد أورد القرطبي من وجوه تفسير قوله تعالى: "والجار ذي القربى" أنه القريب المسكن.٤٩ ونقل ابن جرير الطبري عن مجاهد تفسير قوله تعالى: {والجار ذي القربى} قال: جارك هو ذو قرابتك.٥٠

ونقل القرطبي تفسير نوفٍ الشامي للآية: {والجار ذي القربى} قال: المسلم {والجار الجنُب} قال: اليهودي والنصراني. ٥١

وعم معنى القربى بالأولوية العشيرة، قال تعالى: (وأَنْذِرْ عَشِيرَتَك الأَقْرَبِين) {٢١٤} الشعراء ، وهي تشمل المسلم وغيره.

---

٤٩ الجامع لأحكام القرآن للقرطبي- سورة النساء- آية ٣٦

٥٠ جامع البيان عن تأويل آي القرآن للطبري – سورة النساء- آية ٣٦.

٥١ الجامع لأحكام القرآن للقرطبي- سورة النساء- آية ٣٦

والذي أراه هو إمكان التوسع في مفهوم (إيتاء ذي القربى) ليشمل رابطة العشيرة والقومية ومن اشترك مع المسلم في المجاورة الإقليمية، وقد قال تعالى: (وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ {٤٤} الزخرف.

وباجتماع الثلاثة: العدالة بين جميع الناس، والإحسان لكلّ مسالم، والعطية لكلّ قريب، تتكون منظومة خلقية صالحة لإدارة الحياة بجدارة، إذا أحسن متبنّوها توظيفها جيدًا.

ج- منع التدخل القسري في خصوصيات المخالفين:

علّمَنا منهجنا الإسلامي أن لا نلغي - قسرا - خصوصياتِ غير المسلمين، فلا نلزم النصارى بالامتناع عن شرب الخمر مثلاً لأنها حرام في الإسلام، ولا بالامتناع عن أكل الخنزير. وقد حرّم الإسلام اغتصاب المسلم الخمرَ من الذمي أو كسر وعائه، وذهب فقهاء الحنفية والمالكية إلى ضمان متلِفها لقيمتها ، لأنها مقوَّمة ومتموَّلة في اِعتقادهم ونصت وثيقة المدينة المنورة التي وضعها النبي صلى الله عليه وسلم لتنظيم المجتمع المدني المختلط في أديانه على أنّ " يهود بني عوف أمة مع المؤمنين، لليهود دينُهم وللمسلمين دينُهم مواليهم وأنفسُهم إلا من ظلم وأثم فانه لا يوتِغ إلا نفسه وأهل بيته ..."[٥٢]

فكانت الوثيقة التي تبناها الإسلام مؤسسة لعيش مشتركٍ بين المسلمين وغيرهم. واشترك في حكومات الخلافة العباسية وزراء من غير المسلمين، وكان لهم مع المسلمين دور مهم في بناء العصر الإسلامي الذهبي.

وما ذكر غيضٌ من فيض في منهجنا الإسلامي الذي يستوعب وجود المخالفين، ويأنفُ من التدخل في خصوصياتهم، ويتناغم معهم في بناء الدولة والمجتمع.

د- قابلية التكيف والمرونة في التطبيقات:

قَبِلَ النبي صلى الله عليه وسلم من الفقير[٥٣] أكله لكفارته، حين وجده شديد الحاجة، ولم يقطع عمر رضي الله عنه في عام المجاعة يد سارق، وقبل من النصارى تغيير اسم الجزية إلى اسم الصدقة حين طلبوا المساواة بالمسلمين.

وقد أقروا في قواعد الفقه[٥٤] أن الْأَحْكَام تتغير بِتَغَيُّر الْأَزْمَان، وأنّ الْمَشَقَّة تجلب التَّيْسِير، وأنّ الْأَمر إِذا ضَاقَ اتَّسَع، وأنّ الضرورات تبيح الْمَحْظُورَات، وأنه يُخْتَار عند هجوم المفاسد أَهْونُ الشرّين. وكل ما ذكر مندرجٌ في تكيّف الفقه الإسلامي في مذاهبنا الأربعة ومرونته، فالحرجُ مرفوع، والأَصْل في الأشياء عندنا إباحتها، وقد خلق الله تعالى الأرض لنا جميعا، ولا نطلق التحريم على شيء لم يرد في الشرع تحريمه، و لَا عِبْرَة للتوهم، ولَا حجَّة مَعَ الِاحْتِمَال.

---

[٥٢] البداية والنهاية ، لابن كثير – الجزء الثالث – فصل في عقده عليه السلام الألفة بين المهاجرين والانصار.

[٥٣] صحيح البخاري– باب: التبسم والضحك – وباب: ما جاء في قول الرجل: ويلك.

[٥٤] شرح القواعد الفقهية **المؤلف** :أحمد بن الشيخ محمد الزرقا [١٢٨٥هـ – ١٣٥٧هـ [**صححه وعلق عليه** :مصطفى أحمد الزرقا **الناشر** :دار القلم – دمشق / سوريا.

وما ذكرناه مجرد أمثلة على المرونة والتكيف.

ثانيا- توظيف التحالف الإقليمي ليكون نواة ارتقاء:

إن المتأمل للتحالفات العالمية المعاصرة يجدها قائمة على مجرد المصالح رغم وجود التباينات العقدية والفكرية والعرقية، فقد اتحدت الولايات الأمريكية اتحادا فيدراليا، وكان الاتحاد الأوربي اتحادا اقتصاديا وعسكريا، لكنّ محور جاكرتا طنجة الإسلامي بعد زوال الخلافة العثمانية بقي ممزقا متناحرا مع امتلاكه عناصر الثروة الطبيعية ووفرة موارده البشرية، ويصعبُ جمعه الآن في ظروف الولاءات السياسية التي تجعل جميع القرارات صادرة من خارج عالمنا الإسلامي. ومن المؤسف أنّ دولا في منظمة التعاون الإسلامي تحولت من عنصر تقاربٍ إلى سبب شقاقٍ ونزاع. فكان لزاما في الأقاليم المتقاربة لا سيما التي ثارت فيها الشعوب الإسلامية على الحكومات المستأجرة العميلة أن تبدأ تقاربا يدعمه تناغم المبادئ، وتحركه دوائر الاقتصاد، وتجعله منظمات المجتمع المدني متداخلا، وتكون السياسة لاعبا شريفا فيه لمصلحة شعوبه. إن ثورة تركية على الانقلاب الغربي كانت ناعمة وطويلة وبطيئة، وما تزال تعرج درجة درجة في منازل الارتقاء، راغبة في تحقيق طموح الشعب المسلم الذي وصل الشرقَ الإسلامي بغربه يومًا من الأيام.

أما ثورة سورية فقد حاولت في بدايتها أن تكون ناعمة، لكنّ الدولة الإقليمية التي ترفع الشعار الإسلامي، وتخفي تحته اتجاها مذهبيا إقصائيا تدخلت (باسم دعم الحاكم العميل) فحولت مدن سورية إلى خراب، وجعلت الحدائق حرائق، فقرر الشعب السوري أن يمزق عنه ثوب الغرباء، وأن يعود بقوة السلاح إلى أمجاد أجداده المسلمين. وهاهي ثورة العراق بدأت تظهرُ بقوة بعدما عانت من أعداء سورية المعاناة نفسها، وأدركت أن الطموح واحد، وأنّ الآمال متقاربة. وقد رأينا أنّ حكومة تركية التي تشقّ طريقها إلى التحرر الذاتي بشق الأنفس لم تكن لتضنّ على جيرانها بالمتاح، فاشتركت معهم بما قُدّر لها أن تشترك فيه، وبما تسمحه لها ظروفها وتجود به.وأصبح واضحا لكلّ مفكّرٍ أنّ التحالف الإقليمي مدفوعٌ بالمبادئ والمصالح معا، ولا شكّ أن التحالف الذي تشترك في دعمه المبادئ والمصالحُ سيكون أقوى وأدوم من أي تحالف لا تدعمه إلا المصالح فقط، لكن من أين يبدأ التحالف؟

ثالثا- أدوات التحالف الإقليمي المقترحة وآلياته:

الحديث عن وحدة الأمة الإسلامية أو اتحادها دفعة واحدة صعود إلى سطح الكعبة من غير سُلّم، والذي يستدعيه المنطق لملمة الشمل في الأقاليم المتقاربة تعاونا لوجستيا قبل الحديث عن وحدةٍ أو اتحاد، ونرى أن ذلك ممكن على أصعدة عدة، ونورد بعض المقترحات الخادمة لذلك على سبيل المثال لا الحصر:

١- التعاون الاقتصادي:

أ- التبادل التجاري والصناعي ومسهلاته كحذف الضرائب الجمركية وغيرها.

ب- فتح الاستثمارات المتبادل في البلدان المتقاربة، وتسهيل تملك الأرض واستئجارها الطويل.

ج- فتح البنوك الإسلامية المتبادل التي لا تعتمد مجرد أسلوب المرابحة، بل تنتقل إلى الشراكة والمضاربة وغيرهما من أنواع المعاملات الإسلامية التي أثبتت أنها الوسيلة الأقوى في التنمية الاقتصادية.

د- إدخال البطاقات البنكية التي تستند إلى النقد الذهبي في التعامل التجاري، ومعلوم أن الذهب يُخرج البلدان الإسلامية من التبعيات السياسية، والانتماءات الدولية، وقد سبقت ماليزيا غيرها في هذه التجربة.

هـ - تبادل الموارد البشرية في العمل والصناعة والمهن المتعددة، وهذا التبادل لا يوفر نماء اقتصاديا وحسب بل يمهد لامتزاج ثقافي وحضاري.

٢- التعاون الاجتماعي:

أ- توسيع نشاطات منظمات المجتمع المدني خارج البلدان التي نشأت فيها، إلى الأقاليم الإسلامية المتقاربة، وذلك في الصحة والبيئة والتعليم والثقافة والفنون والعمل الخيري إلى غير ذلك من تخصصات هيئات المجتمع المدني.

ب- توسيع الوقف الإسلامي ليمتد إلى مساحة الإقليم الجامع للبلدان.

ج- الحد من الأنظمة المانعة أو المعرقلة للزواج الذي يرتبط فيه الأزواج من البلدان المتقاربة.

د- تسهيل التنقلات المتبادلة بين البلدان المتقاربة، واعتماد وسائل النقل الشعبية السريعة كالقطارات بين البلدان.

٣- التعاون البرلماني:

أ- إيجاد برلمانات إقليمية.

ب- تشكيل لجان ضمن البرلمانات الإقليمية لمتابعة المعضلات المتنوعة في البلدان المتقاربة.

ج- محاولة التقارب التشريعي بين البرلمانات نظرا لانتماء البلدان الإسلامية إلى تشريع قانوني يعتمد الشريعة الإسلامية السمحة أصلا لها، والاستفادة من تعددية المذاهب الأربعة التي تعطي المجتهد المشرع سعة في الرؤية والتقنين.

٤- التعاون السياسي:

بمقدار نجاح المراحل السابقة في الاقتصاد والاجتماع والقانون، نستطيع الاقتراب من التعاون السياسي الذي قد يرتقي إلى الاتحاد أو الفيدرالية، ويبني لبنة في تحول منظمة التعاون الإسلامي من منظمة منظِّرة هامشية إلى نواة حقيقية فاعلة قادرة في المستقبل على تقريب الأمة الإسلامية من بعضها بَعد بُعدٍ وشتات.

الخلاصة:

نحن نملك اليوم مقوماتٍ إسلاميةً نظريةً قويةً للمجتمع الإسلامي، ونرصُد توقًا وشوقًا شعبيا في البلدان الإسلامية لتحويل النظرية إلى واقع تطبيقي مُعاش، ولا يقف مانعا ومعوقا أمام تحقق هذا المشروع إلا الأدوات السياسيةً الحاكمة والمتسلطة التي تعمل لحساب الغرباء الذين لا يريدون لأمتنا نهوضا ولا ارتقاء، فإذا اجتمعت الثلاثة المأمولة معا (المقومات النظرية والرغبة الشعبية والإرادة السياسية) نستطيع القيام بدور حضاري إسلامي من جديد، ونخيط للحسناء ثوب عرس معاصر ثمين.